

السِّرُّ الْأَعْظَمُ

مصطفى محمود

السرا الأعظم

الطبعة العاشرة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



السِّرُّ الأعْظَمُ



ليس إنساناً من لم يتوقف يوماً في أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه . . من أين وإلى أين وما الحكاية ، وماذا بعد الموت . أينتهى كل شيء إلى تراب . . . أكون عبثاً وهزلاً أم أنها قصة سوف تتعدد فصولاً . . أكان لنا وجود قبل الميلاد . . وماذا كنت قبل أن أولد . . ومن أنا على التحقيق ، وما حكمة وجودى . . وهل أنا وحدى في هذه الغربة الوجودية . . أو أن هناك من يرانى ويرعانى ويعتنى بأمرى ؟

وليس إنساناً من لم يحاول أن يحل هذه الألغاز ويجيب عن تلك التساؤلات ويقرأ بكل قلبه ، ويستمع بكل أشواقه إلى من يقول عندى جواب ، فالمسألة ليست ترفاً فلسفياً كما يدعى الماديون وإنما هى كل شيء ، وسوف يتوقف عليها كل شيء . . وإذا كان أصحابنا الماديون قد شغلوا أنفسهم باللقمة والنكاح ولذة الساعة عن هذا السؤال العظيم فما أبعدهم عن الإنسانية . وياله من أمر مخز أن تسمع الواحد منهم يلوى وجهه ليقول مشيحاً بيده : هذه مسائل غير مطروحة . . مردداً بذلك شعاراً محفوظاً قد وزعوه عليه في الحزب حيث جعلوا التفكير أمراً محظوراً ؛ ليظل الكل عبيد لقمة ، يقودونهم بالجوع ويدفعونهم بالحققد ، ويحركونهم بالأهواء قطعاناً من البهم ، لا ترى إلا على مدى شبر أمامها . . وما أبعد هذه الصورة

المشوهة عن الصورة الأخرى للفطرة النقية التي عبر عنها ذلك البدوي البسيط ، الذى وقف يتلفت حوله فى الصحراء ينقل بصره بين السموات والأرض ويحدث نفسه وهو يتتبع آثار بعيره على الرمل . . « إن البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، أفلا تدل سموات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج على مبدع لطيف خبير . »

هنا فطرة نقية شفاقة شفافية الهواء الطلق ، أدركت الحكمة والنظام من نظرة واحدة فأنكرت العبث وهدت صاحبها إلى الحقيقة ، وهناك فطرة سودتها المداخلن وأصمها ضجيج المكن وألهبها عواء الغرائز فاستغرقها المطلب العاجل وأنساها وراءه كل شيء .

« إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا »

(سورة الإنسان : ٢٧)

« بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » . (سورة الدخان : ٢٩)

وفى كتب سابقة حاولت أن أكلم هذا الملحد وأناقشه بمنطقه وأسلوبه وأبدأ معه من حيث يريد أن يبدأ (رحلتى من الشك إلى الإيمان . . حوار مع صديقى الملحد . . القرآن محاولة لفهم عصرى . . الله . . التوراة . . الماركسية والإسلام . . محمد . .)

واليوم موعدى مع المؤمن الذى اقتنع واستوعب كتابه وأراد أن يرحل معى رحلة من نوع آخر . . رحلة إلى أعماق السر . . وإلى جلية الأمر . أنا اليوم مع رجل لم يكتف بأن يعرف أن الله موجود ، وإنما يريد أن يعرف هذا الرب ويستجلي أسرارهِ . . ماهو ؟ . ولماذا خلق ما خلق ؟ . وما حقيقة العلاقة بين الحق والخلق - وبين العبد والرب ؟ . وما علاقة الكثرة بالواحد ؟ . وكيف خرجت الكثرة عن الواحد ؟ وما علاقة الله بأسمائه ؟

.. هل الأسماء هي عين المسمى أو غيره ؟ . وهل كان لنا وجود قبل نزولنا في الأرحام ؟ وأين وكيف . . وماذا بعد الموت ؟ . وما البرزخ ؟ . وما الآخرة . . أفياها عمل وتنقل في المراتب كما في الدنيا ؟ . أفياها عبادة ؟ . وإلى أين تنهاى القصة ؟ . أنرى الله في الآخرة ؟ . أيمكن أن نراه في الدنيا ؟ (وكتابى رأيت الله كان مقدمة طويلة لهذا الموضوع) . . وما سر القدر ؟ . وما الفتح . . والكشف ؟ . أيمكن أن يرتفع الحجاب عن الغيب . . وكيف ؟ . وماذا يرى الرائي حينما ينكشف الحجاب ؟ . ومن هو العارف الكامل ؟ ؟ . وموضوع اليوم بحث واستقصاء أرجع فيه إلى السادة العارفين وأعتمد على آراء الأقطاب الكبار الكُمل ، من أهل الكشف والفتوحات ممن لاشك في مكانتهم العلمية وصدقهم ، أمثال ابن عربى والغزالي والنفري والجيلي وأبي الغزيم وابن الفارض ، كما أعتمد على رسالة دكتوراه عالية القيمة قدمها الزميل الدكتور محمد مصطفى فى موضوع الرمزية عند ابن عربى أفادتني كثيراً فى تفهم هذا الصوفى العظيم .

موعدنا اليوم إذن مع أهل الله وأحبابه ممن انشروحت صدورهم لتلقى الأسرار الإلهية ، وليس مع المعاندين المكابرين من أهل الجدل . . ولن نلجأ فى هذا الكتاب إلى حرفة الجدل ومقارعة الحجج ، وإنما سيكون رائدنا ما قاله ابن عربى :

الصوفى فى أصل منهجه « عدم التنازع » ، أى لا ينازع الآخرين الرأى ، ولا يحاول قهرهم بالجدل . . يقول ابن عربى :

« أنا لم أنازع أحداً قط وكل مخالفة منى هى تعليم لا نزاع فإنى ما ذقت فى نفسى القهر الإلهى ولا كان لى من هذه الحضرة حكم »
وهو فى هذا يتأسى بالقرآن :

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » . (سورة البقرة : ٢٧٢)
« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .
(سورة القصص : ٥٦)

« إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا » . (سورة النازعات : ٤٥)
« مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » . (سورة المائدة : ٩٩)
« عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » (المائدة : ١٠٥)
والسائر معى فى هذا الكتاب سوف يجد المسيرة أشق وأصعب من أى
كتاب آخر ، وسوف يكتنفه الغموض ، وقد يبهيم عليه الأمر . . وقد يتوقف . .
لأننا هذه المرة نحاول النفاذ من أقطار السموات والأرض والخروج من
حدود الزمان والمكان لتحسس المطلق حيث لا تسعفنا العبارة ، وحيث لا نجد
الكلمة ، وحيث تتقاصر الحروف عن المعانى (وهذا هو الشأن دائماً فى بحر
المعارف الإلهية) ، يقول الإمام أبو العزائم :
إن العبارة لا تفى ببيان المضمون من كلام العارفين . . إنما هى أنوار
وإشارات ، والنفوس تذوق من المعانى بقدر ما وهبها الله .
ويقول :

العبارة لا تكشف الحقيقة ، ولو أنها تكشفها ما بقى على وجه الأرض كافر .
ويقول النُّفَرى :

الكلمة حجاب والحرف حجاب . .
ويقول ابن عربى :

الله لا يتجلى فى الحضرة الكشفية بصورة واحدة لشخصين ولا بصورة
واحدة مرتين ، وهو يتجلى بما لا مثل له ، ولهذا لا ينضبط الأمر ويستحيل
الوصف وتعجز العبارة فهذه صفة الذى « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » .

وبسبب انتفاء المماثلة يستحيل الاصطلاح ويستحيل طرح الأمر
طرحاً موضوعياً يشترك في فهمه الكل .

ولله حكمته في هذا الاستسرار .

« جل جناب الله أن يكون شُرْعَة لكل وارد ، إنما يَطَّلَع عليه الواحد
بعد الواحد » .

فَالله من صفاته أنه العزيز الممتنع الذي لا يبيح أسرارهِ إلا لمن كان أهلاً
لتلك الأسرار فهي ليست شرعة لكل وارد .

ونبيناً عليه الصلاة والسلام يقول : « لا تلقوا درر الحكمة أمام الخنازير
فتظلموها ، (فتظلموا الحكمة) ، ولا تحرموها أهلها فتظلموهم » .

فهذا العلم هو من قبيل « العلم المضمون » ، ومن قبيل المعرفة الخاصة التي
تبذل للخاصة .

ومن هنا كان كتابنا هذا للخاصة من أهل الأذواق ، وليس للعامة .
ومن توقف به السير في صفحاته فقد أدرك حظه . . إنما يأخذ كل واحد
من الكلمات على قدر مشربه .

ولن نلجأ إلى التبسيط كعادتنا في كتبنا ، فالتبسيط يقتضي التصرف
في المادة المعروضة ولسنا أحراراً في هذه المادة ، إنما نوردناها كما استقينها
من منابعها . . وأصحابها قد أوردوها علينا كما أُلقيت إليهم بكرةً من
مصادرها العليا ، فنحن أمام علم ضنين . . التبسيط فيه إخلال وابتذال .

ونعود فنقول : إن عبارات الصوفية هي في حقيقتها تذوق لما لا ينقال
. . فهي تعبر بالإشارة والإيحاء . . فمن وهبه الله الذوق التقط الإشارة . .
وترجم العبارة . . ومن حرم الذوق فاتته الإشارة وأبهمت عليه العبارة .
جفت الأقلام ، وطويت الصحف .



الهُوَ



الصوفي العارف لا يرى حيثما توجه إلا الله .
« فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » (سورة البقرة - ١١٥)
فكل ما في الدنيا تجلياته وتنزلات أسمائه الحسنی وصفاته .
كل مظاهر الكون رموز من حيث تشير إلى الحقائق الإلهية والتجليات
الأسمائية . . فما ثم شيء عادي وإنما كل شيء في نظر الصوفي يدعو إلى
الدهشة ؛ والوجود كله عجب لأن كل ما يبدو له يحدث عنده ذكرا ويكشف
حكمة ويجلو أمراً . . وهو أينما تلفت يقول مبهوراً . . الله . الله .
وليس في الأمر مجاز أو تشبيه وإنما كشف روحى . نورانى .
يقول ابن عربى :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| كل ما أذكره من طلل | أو ربوع أو مغان كل ما |
| وكذا السحب إذا قلت بكت | وكذا الزهر إذا ما ابتسما |
| أو بدور فى خدور أفلت | أو شمس أو نبات أنجما |
| أو بروق أو رعود أو صبا | أو رياح أو جنوب أو سما |
| أو نساء كاعبات مُهَدِّدِ | طالعات كشموس أو دُمى |
| كل ما أذكره مما جرى | ذكره أو مثله إن تفهما |
| منه أسرار وأنوار جلت | أو علت جاء بها رب السما |

صفة قدسية علوية أعلنت أن لصدق قدمنا
فاصرف خاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلمنا
ويقول العارف بالله أبو العزائم :
حكمة الخلق أن يلوح ظهوراً غيبٌ غيبٌ منزهاً مستورا
أى أن حكمة خلق الله للكون هى أن يلوح الخالق ويظهر ويُجلى للعيون
غيبه المتزه المستور ، فأينما توجه الصوفى ببصره فى الوجود يهتف فى خشوع :

لا إله إلا هو يتجلى فى الوجود
خلقاً وصنعاً وحكمة وملكاً كبيراً
ظاهراً أينما تلفت القلب فى
السموات والأرض رامزاً ومشيراً
صفحة الكون إن تأملت « رِقْهُ
المنشور » سُطِّرت صفاته بها تسطيرا
أينما توجهت ثم آياته تلوح
للعين تبهر السميع البصيرا
هى أسمائه وأوصافه تجلت
صوراً توقظ الألباب والتفكير

ويتساءل الإمام أبو العزائم . . كيف يَحْقِ الإله !!! ؟
كيف يَحْقِ والكون علواً وسفلاً مظهر له يلوح مثالا ؟
كل شيء أراه فى الكون يُنبئ بمعانى توحيده إجمالا
ولسان حال الصوفى يقول على الدوام :

لا إله إلا هو فى الأول والآخِر ظاهراً باطناً رامزاً خلف الحجاب
ما ترى فى الكون إلا سر أسمائه الـ حسنى تُجلى صوراً خلف نقاب

وهذا التجلى الإلهى فى الأشياء ليس حلولاً (كما تقول بذلك الفكرة الهندية) .

يقول ابن عربى : إن الشمس تتجلى فى مرآة القمر وليس فى القمر من الشمس شىء (ليس فى الأمر حلول) كما أن نور الشمس من حيث عيناها هى من تتجلى اسمه (النور) دونما حلول .

يُمْنُ الأكوان منزله وهو لا روح ولا جسد
ماله حَدٌّ يعينه وهو المطلوب والصمد
فجميع الخلق يطلبه ثم لم يظفر به أحد
أحد ما مثله أحد بكمال النعت منفرد
ولا تكرار فى المظاهر الإلهية برغم الكثرة لأن كل شىء له وجه خاص يختلف به عن مثيله فلا مثلية إلا فى الظاهر . . وهذا الوجه الخاص هو صلة كل شىء بالله وهو سر الإبداع الإلهى الذى لا يكرر نفسه .
وتجليات الحق فى جِدَّة دائمة وأولية مستمرة لتجدد الخلق على الدوام ،
فلا شىء يتكرر لأن الله ليس فقيراً وكل نَفْس إلهى يأتى معه بجديد . .
والمحدودات كلها فى خلق جديد والناس من ذلك فى لباس . . ومن هنا كانت دهشة الصوفى الدائمة أمام الكون . . وآخر ما يتم خلقه فى السلسلة ما تخلقه الكائنات بأنفاسها من مخلوقات خبيثة أو طيبة « وهو ما يسميه الهنود فى علومهم thought forms أى ما تخلقه الأفكار الطيبة والشريرة من مخلوقات غير مرئية » .

وكلما عرفت الكون أكثر علمت أنه لا شىء إلا الله . . وما ترى حولك إلا عموم التجلى . . وهنا يصبح الحق (الله) دليلاً على نفسه ودليلاً على غيره وما ثم غيره .

فكل ما سوى الله ظل لله .
وكل ما سوى الله رامز لله .
وكل ما سوى الله من صنع الله . .
وما في الوجود غير البرازخ . . ما في الكون إلا الحجب كما يقول
ابن عربي: أى مظاهر توصل إلى الحقيقة الإلهية وتحجبها أو تكشفها .
فالله لا يبدو كما هو في عينه وإنما في قناع مظاهر .
نراه إذا كنا وما هو عَيْنُهُ . ولكنه كشف صحيح خيالى
العالم صفات على نحو ما يترأى الحق تعالى من ورائها . . صفة
حق تظهر خلف حجاب صفة عبد . . يقول ابن عربي :
الكل بحمد الله خيال في نفس الأمر لأنه لا ثبات له وكل ما نرى في الدنيا
رموز تحتاج إلى تأويل .

فالله أظهر نفسه بحقائق الأكوان في أعيانها فاعبده به
إن كنت تعبدته فلست بعابد فانظر إلى قولى لعلك تتبته
وهذا تفسير ابن عربي لآية « إياك نعبد وإياك نستعين » (فاتحة الكتاب - ٥)
أى نستعين بك على عبادتك .

فنحن لا يمكن أن نعبد الله إلا بالله . . لأنه الدليل على نفسه .
فإن كنت تعبد الله بنفسك فلست بعابد بل مدع . . إنما تعبد الله
بالله بآياته وبأدلته على نفسه أى تعبد به .

وفكرة « التجلى » الإسلامية غير وحدة الوجود الهندية الوثنية .
فوحدة الوجود الوثنية pantheism تقول بوحدة الخالق والمخلوق ،
فالقاتل هو عين المقتول ، والرب عين العبد ، والخالق عين المخلوق ،
والعارف عين المعروف ، والكل واحد all one .

أما عند ابن عربي فلا توازي بين الأصل والصورة ، والمظاهر ليست عين الذات الإلهية ، فالذات الإلهية مُعَرَّة مجردة عن ملابس الفروع وزينتها من ورق وثمر وزهر وكل ذلك من الله ، ولكن الله في ذاته منزّه عن كل ذلك ، (فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتزوج) فقد أعطى ما لا يقوم به فهو الغنى المستغنى والفرع هو الفقير المحتاج ، ومن هنا لا يوجد توازي بين الأصل والصورة ، ولا يصح القول بأن الحق هو عين الخلق وإنما كل ما تذهب إليه فكرة التجلي أن كل مظهر عبارة عن رمز له مستند إلهي ، ومن هنا يقول ابن عربي : أوصيك لا تحتقر أحداً ولا شيئاً من خلق الله فإن الله ما احتقره حين خلقه . . ويكون ابن عربي بذلك من أصحاب وحدة الشهود لا وحدة الوجود .

والدنيا عند ابن عربي حضرة تشبيه ولا شبيه ، وحضرة تمثيل ولا مثل ، فالله يدل على نفسه بضرب أمثلة في المظاهر والتجليات ، فمن وقف عند المثال احتجب وضل ، ومن تجاوزه إلى المرموز الخافي وراءه اهتدى ، « والعلم » هو ما لله تعالى من الوجوه في كل مخلوق ومبدوع ، والشرعية والحقيقة هما ترجمان الاسم الظاهر والباطن . . وأشرف العلوم هو العلم بالله لأنه متعلق بأشرف معلوم ، وما العلم بما سوى الله إلا عُلاله يتعلل بها المحجوبون وعن هؤلاء يقول القرآن :

« يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »

(سورة الروم - ٧) .

والله خلق الإنسان على صورته « على مقتضى أسمائه وصفاته سميعاً بصيراً مريداً حياً متكلماً » ليدل عليه .

فأنت تعرف وحدانية الحق من وحدانيتك ، وفردانيته من فردانيتك ،

فأنت واحد وأنت كثرة ، وأنت ديمومة وأنت زمن ، وأنت ظاهر وأنت باطن ،
وأنت حي مريد متكلم سميع بصير رءوف ودود رحيم كريم حلیم جبار منتقم
علیم نافع ضار . « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (سورة الذاریات ۲۱)
وكلها أسماء الله الحسنی وصفاته تنزلت فیک علی قدر أهلیتک واستحقاقک .
مع الفارق أن صفات الله حق لله مستعارة للإنسان ، فهي لله بحکم الأصل
ثم سرى حکمها فینا (حسب استعداد قوایل نفوسنا لها) بحکم الخلق
علی الصورة . . ولهذا لا یحق لأحد أن یقول إنه حلیم ودود رءوف من عند
نفسه دونما تلقي ودونما فضل من إله أو دین ، فکلامه منتهی الغفلة لأن قیام
هذه الأخلاق فیه هی سریان الأحدیة بأسمائها وصفاتها فیه ، فهي فضل
إلهی مع أنه ینکر الله بکل بساطة وغفلة .

ثم إن للحق خصوص وصف هو الغنى الذاتی وللعبد خصوص وصف
هو الذلة والافتقار والاحتیاج الذاتی ، « وهی سلام الوصول ومعراج
الارتقاء إلی الحق تعالی ، فکلما لازم الإنسان عبودیته أفاض علیه ربه
(بحکم احتیاج الرتبة) . . ومن هنا لا یوجد هناك خلط أبداً فی هذه
الفكرة بین العبد والرب و بین الخالق والمخلوق ولا یوجد توازی بین الخالق
والمخلوق ولا وحدة ولا اتحاد ولا حلول .

یقول ابن عربی : لا یمکن أن یصبح العباد أرباباً فی أنفسهم وإن
ظهروا بنعوت سیدهم . . فإنک لا تصبح ملكاً بصولجان مستعار . . ثم ما
أبعد الفرق بین صولجان وصولجان . . إنما هو اشتراك ألفاظ فافهم ولا تقع
فی الخذلان وسوء الأدب .

إنما یتصف الحق تعالی علی مقتضى ذاته ویتصف العبد علی مقتضى
ذاته ، فتختلف الصفات وإن اتحدت الأسماء . والألفاظ واحدة والحکم

مختلف والعبد عبد والرحمن معبود .

يقول أبو العزائم :

فعلمت أنى عبده والعبد عبد لا مفر

ويقول: إن الله بعيد برغم قربه متعالٍ برغم ظهوره .

قريب لأهل القرب جل جلاله عِلِّيُّ على الإدراك والتحديد

فالله هو الظاهر فى المظاهر . . وفرق بين الظاهر وبين المظاهر كالفرق بين

الخمير والقدح وفى ذلك يقول الإمام أبو العزائم :

صارت الأكوان للخمير قداح . .

أى صارت الأكوان مظهرًا للخمير الإلهية (أى الأنوار الإلهية -
أنوار الأسماء والصفات) .

« دِنُّها رسمى وقلبي كأسها » . . والشرب من هذه الخمر هى رؤية
الله فى آياته .

وحيثما يقول أبو العزائم: « الرسم » فإنه يقصد الجسد والمعالم المادية
للأشياء ، فالجسد هو دِنُّ الأنوار والقلب كأسها .

وإذا استعرنا التشبيه العصرى فسوف نقول الظاهر والمظاهر كالنور
فى أنابيب النيون وأنابيب النيون ذاتها . . فأنابيب النيون هى المظاهر فى
تشكيلاتها المختلفة وهندساتها المتفاوتة . . وفى كل أنبوبة تُجلى صفة خاصة
للنور حسب هندسة الأنبوبة وتركيبها . فأنبوبة تظهر النور الأحمر وأنبوبة
تظهر النور الأزرق وأنبوبة تظهر النور البنفسجى ، وكل هذه الألوان
من النور الأبيض الواحد . . فهى تفصيل ما أجمل فى النور الأبيض وهو
الظاهر فيها جميعاً على اختلاف مظاهرها ومن هنا يقول أبو العزائم إن التجلى
هو نزول من الإجمال إلى التفصيل .

أشهدتاً نور التزول عياناً من مقام الإجمال للتفصيل
وفي بيت آخر يقول الإمام أبو العزائم في نفاذ بصيرة نادر :
وأظهر لنا شفع الحقائق بالوتر
والوتر والشفع هما الواحد والعدد .

والواحد كما نعلم مدرج في جميع الأعداد وسارٍ فيها والأعداد هي
مضاعفات الواحد ، وهي تكشف لنا جميع الاحتمالات الرياضية والحسابية
في الرقم « واحد » وهي تفصيل ما أجمل واستسرفيه .
ويقول أبو العزائم عن احتجاب الله في المظاهر: إنه « تنكر الواحد في
العدد » .

ولولا التنكر لم يُلَخَّ معدود

وفي بيت آخر مليء بالإشارات :
إن التنكر حصتنا في سرنا لولا التنكر دُكَّت الأكوان
ونقرأ هذا الكلام عند ابن عربي .
لولا أن في الواحد عين الاثنين والثلاثة والأربعة إلى ما لا يتناهى ما صح
أن توجد به أو أن يكون عينها وهذا مثال للتقريب فافهم .
ويقول: إن العدد حاكم لذاته في المعدودات ولا وجود له .
كذلك الظاهر حاكم في صور المظاهر وكثرتها وخاف بالنسبة للعين
والحواس . . وليس في العلم الإلهي أغمض من هذه المسألة . .
ويقول: إن الواحد مُدرج في الأعداد إدراج سريان دونما حلول أو اتحاد
وهذا مثال لسريان الأحدية الإلهية في كثرة المظاهر التي نراها دونما حلول
أو اتحاد .

ويقول الإمام أبو العزائم في موضوع التجلى :

وأشهد هذا الكون لوحاً مسطراً بآياته العليا تلوح لذى عقل

ويقول مخاطباً ربه :

تراك عيون الروح في كل مظهر فلا تحجب الآثار أسماءك الحسنى

ويقول :

تجلى لنا حتى نشاهد أننا مظاهر آيات لأسمائك الحسنى

ويقول في كلمات ثابتة في شفافيتها العرفانية :

ولولا سطوع الغيب في كل مظهر لأحرقنى وجدى وأهلكنى عقلى

أى أنه منذ مطالعته لنور وجه الله في النشأة الأولى (قبل الميلاد)

وهو في شوق محرق إلى هذا النور . . ولولا سطوع هذا النور من خلال المظاهر

الدينية لأحرقه الوجد وهلك عقله .

وهو كلام معناه أن المظاهر الدينية حجاب على الغافل الذى يقف

عندها ويجعل منها نهاية مطلبه أما عند العارف الذى يتجاوزها إلى ما وراءها

فهى دليل هادٍ كاشف لا حاجب ، وفيها يتذوق العارف الحضور الإلهى

ويجد السلوى عن أشواقه المحرقة إلى لقاء ربه .

ومن هنا كان لا حجاب بالنسبة للعارف فالله الحق ظاهر في كل شيء وهو

عين الحجاب على نفسه .

ويلخص ابن عربى قصة الخلق وحكمته بأسلوبه الإشارى الجميل

قائلاً :

لما شاء الحق تعالى أن يتجلى بعينه لعينه في كون جامع يجمع الأمر كله

يكون كالمرآة فيشاهد فيها صورة الحسن المطلق والبقاء المحقق في حضرة

الإمكان والخيال خلق شجرة الوجود .

وظهور الحق فى الصور كان هذه الحضرة الخيالية الدنيوية أو حضرة التشبيه ولا شبهه وحضرة التمثيل ولا مثيل .

وهى حضرة تشبيه ولا شبهه . . لأن الله « ليس كمثله شئ » .

لأن حضرة الهوية الإلهية (حضرة الله فى ذاته) حضرة تنزيه لا يماثلها شئ ولا يشبهها شئ وليس لها كيف وكم ولا مقدار ولا مكان ولا زمان ، ولهذا يخاطب ابن عربى نفسه فى الدنيا قائلا :

| | |
|-------------------------------------|--------------------------------|
| إذا كان مشهودى هو الكيف والكم | فما ذاك إلا الوهم ما ذلك العلم |
| بما هو عين الأمر فى عين ذاته | وهل يتجلى الحق فى ما له كم |
| فما هو حق فى الحقيقة واضح | ولكنه حق عليه بنا ختم |
| تَنَزَّهْتُ بى عن لِمَ وكيف وكم وما | وهل عين لفظى قد يكون له الحكم |
| وهل ثم موجود يصح فإن تزد | فما زدت إلا ما يكونه الوهم |

ولهذا يقول بأسلوب الإشارة العميق :

إنما الكون خيال

وهو حق فى الحقيقة

والذى يفهم هذا

حاز أسرار الطريقة

فالعالم عند ابن عربى خيال ورؤيا يجب تأويلها (لأنه خيال يرمز إلى حقيقة) ولو لم يكن العالم رمزاً بالصورة للأصل (الله) لم يصح وجود العالم . . وإلا فمن أين كان يكتسب حقائقه التى هو عليها .

ولهذا يقول ابن عربى :

لولا سريان الحق تعالى فى الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجوده .

ومحال أن يظهر فى العالم شئ ليس له مستند فى الجنب الإلهى .

وفى رأى ابن عربى أن المرأة شفعت الرجل بمثل ما شفعا الله بمعيته
(شفع الله الأصل بالصورة فتعشت الصورة الأصل) فالمرأة ترى فى الرجل
ربها كما نرى نحن فى الله ربنا وأصلنا . . ألم يخلق الله حواء من آدم ؟ ؟
« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » (سورة الذاريات ٤٩) .

يقابلها فى الأسماء الثنائيات والمتقابلات . . الظاهر والباطن . . الأول
والآخر . . النافع والضار . . القابض والباسط . . المعز والمذل ، وهما قدما الصدق
أوهما اليدان اللتان خلق الله بهما آدم فأصبح جامعاً للضدين .

* * *

وإذا كانت الدنيا هى حضرة تشبيه ولا شبيه وحضرة تمثيل ولا مثل . .
وإذا كانت الدنيا هى ضرب أمثلة بالصور والتجليات . . وإيماء بالظاهر
للتنبيه على الباطن ، وبالعديد للتنبيه على الواحد ، وبالمشهود للتنبيه على
الغائب . . فما هو ذلك الغائب الباطن الخفى الواحد إذا ؟

هو . .

هُوَ الْهُوَ .

هو الذات . . والوجه (كل شيء هالك إلا وجهه أى ذاته) . .
هو الحقيقة . . وكلها مترادفات لمعنى واحد .

يقول ابن عربى :

لوعرف الْهُوَ لما كان هو .

فهو حضرة الغائب أبداً .

وحضرة الهوية أو حضرة الذات هى حضرة تنزيه مطلق وتجرد تام عن
أى مثلية ، وهى الحضرة التى يرى فيها الله نفسه على ما هو عليه وانفرد
الحق بها ولا مدخل لنا إليها بحال .

ويقول ابن عربي :

التجلى الإلهى فى المظاهر الدنيوية ينقال .

والتجلى الذاتى لا ينقال ولكن يُشَهد وإذا شُهِد لا ينضبط (لأنه

لا يتكرر فى المشاهدات ويأتى كل مرة بصورة جديدة)

وحضرة الجمال لنا فيها مدخل وشهود .

أما حضرة الجلال فلا مدخل لأحد فى معرفته أو شهوده ، فهو الهيبة

المطلقة التى ليس لأحد بها طاقة . وكذلك حضرة الذات وحضرة الهوية .

والأحدية موطن الأحد الذى لا يصح فيه التجلى أبداً خوفاً من دعوى

الاتحاد .

الأحدية عليها حجاب العزة لا يرفع أبداً . فلا يراه فى أحديته سواء

لأن الحقائق سدت باب ذلك .

واعلم أن الإنسان وهو أكمل النسخ وأتم النشآت مخلوق على الوجدانية

لا على الأحدية ، فهو واحد وليس « مطلق أحد » . فالوجدانية لا تقوى

قوة الأحدية والواحد لا يناهض الأحد . . ولأن الأحدية صفة ذاتية للذات

الهوية فلهذا جاء الأحد مع أوصاف التنزيه للرب فى سورة الإخلاص . .

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . .

ويقول ابن عربي عن هيمنة هذه الذات على كل شئ : لو علم العقل أنه

معقول وعلم العلم أنه معلوم وأبصر البصر أنه مُبصر لذل الكل تحت القهر وغرق

الكل فى هذا البحر .

ويجب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على من يسأله كيف رأيت ربك ؟

نور أنى أراه . .

ويصف العارف لحظة كشف الحجاب قائلاً :

زُجَّ بِي فِي النُّورِ وَأَفْنَانِي النُّورِ وَأَقْنَى كُلِّ شَيْءٍ فَمَا عَدْتُ أَرَى سِوَاهُ .
ويفسر ابن عربي هذا النور بأنه سبحات العزة المحرقة المسدلة دون الحق
تبارك وتعالى ، والتي تُفْنِي الرَّائِي أَنِّي تَوَجَّهَ فَهِيَ لَيْسَتْ الذَّاتُ وَلَا الْوَجْهَ
وإنما اللتام النوراني أو الحجاب النوراني للوجه . . والحجاب الذي انكشف
كان الحجاب الظلماني الدنيوي فما ثم إلا الحجب . . ومطالعة وجه الذات
في الدنيا أمر محال .

وهو يقول :

تَكَبَّرَ الْحَقُّ عَلَى الصُّورَةِ

الشَّانُ فَوْقَ الْعُقُولِ وَالْعَيْنِ

الذَّاتُ بَاطِنَةٌ عَنِ الْإِدْرَاكِ حَسًّا وَمَعْنَى

الأمر ليس كما تدركه العين فجميع صور التجلي مُحدثة (أى

طارئة متغيرة محدودة الآجال) .

ما في الوجود إلا الحجب وهي موضع الإدراكات المختلفة .

ويقول: إن الله من حيث يعلم نفسه ومن هويته وغناه ، فهو على ما هو
عليه وإنما هذا الذي وردت به الأخبار وأعطاه الكشف إنما تلك أحوال تظهر
ومقامات تشخص ومعاني تُجسَّد لِيُعْلَمَ الْحَقُّ عِبَادَهُ مَعْنَى الْاسْمِ « الظاهر »

ومعنى ذلك أن ابن عربي يقول برؤية الله وباستحالتها في الوقت نفسه .

فرؤية الأسماء الإلهية ممكنة (وهو يرى أن الأسماء حجاب على المسمى)

وكذلك رؤية سبحات النور التي تحيط بالوجه . . أما رؤية الوجه أو الذات

أوحضرة الهوية أوحضرة الأحدية أوحضرة الجلال فهي مستحيلة .

والكثير من الصوفية يسمون سبحات النور المحيطة بالوجه . . يسمونها

الوجه الكريم على سبيل التجوز . . ومنهم الإمام أبو العزائم الذي قال

برؤية الوجه الإلهي . . وكان يقصد هذه السبحات بدليل هذه الأبيات التي قالها عن الذات :

هي في كثر العما ليست تُرى إن تجلت أصعقت أهل الكمال
والجلال لها سياج مانع عن حماها كل روح أو عقال
(أى عقل)

نُزّهت عن أن يراها غيرها أشرقت بالاجتلا حال انفصال
مظهر يجلى لنا أنوارها نَزَّهَهَا عن حلول واتصال
ثم يقول :

« لم يلح منها سوى أوصافها »

ومعنى ذلك أن كل ما قاله عن رؤيته للوجه الإلهي ، وهو كثير ومتكرر في أشعاره ، كان يقصد به السبحات النورانية التي تحيط بالوجه وليس الوجه ، لأن الوجه دونه الجلال والهيبة والعزة المهلكة لكل من تطلع إليه .
كذلك رؤية الذات مستحيلة ولكن رؤية أنوار مجلى الذات ممكنة .

ويقول ابن الفارض في هذه الاستحالة بأسلوب نشيد الإنشاد :

فرشت لها خدى وطاءً على الثرى فقالت لك البشرى بلثم لثامى
أى أن منتهى الوصل كان لثم اللثام . . ولكن اللثام لا يرفع أبداً .

وفي شعر جميل بليغ يجيب ابن الفارض على من يقول له صف تلك

الذات الإلهية :

يقولون لى صفها فانت بوصفها خير أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم
تَقَدَّمَ كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم

والله ظاهر من حيث المظاهر باطن من حيث الهوية ولكنه لا يتغير ولا يتكرر مع تلك المظاهر ، فلم يزل الحق تعالى غيباً فيما ظهر من الصور في الوجود ، فنسبتنا منه نسبة الصفات والأسماء ، أما الذات فخفاء مطلق .

ولا يظهر في مرآة الظواهر سوى حكم العين لا العين (أى تظهر صفات وأسماء ولكن الذات تظل باطنة أبداً لا تظهر ولا تتغير ولا تتكرر) وإنما تظهر الصفات في أعيان الممكنات على قدر استعدادها . فما نرى من تكرر وتنوع هي أحكام ونسب للصفات والأسماء الإلهية .

وقد أتاحت هذه النظرة لابن عربي نفي التجزئة عن الحق تعالى لأن الله لا يعطى من ذاته في هذه التجليات شيئاً ، كما أن الشمس لا تعطى من ذاتها شيئاً للقمر حينما تتجلى بنورها فيه .

ولهذا أقام العارفون في « ليس كمثله شيء » فلم يروا الله إلا في ذاته وهويته ، وهى ما غاب من الحق تعالى في عين ما تجلى ، وتلك الهوية هى روح صورة ما تجلى . . فيا أنا ما هو أنا . . (أى أن الله ليس أنا) . . ويا هو ما هو (أى أن الله ليس ذلك الشيء وليس ذلك الرجل) . . بل هو هو . . وهذه لغة الدراويش الإشارية .

كما أتاحت هذه النظرة أيضاً لابن عربي نفي البينية . . فليس بينك وبين الله إلا الله ، فالله كما قلنا هو عين الحجاب على نفسه وهو الذى يحجب نفسه بنفسه وهو الذى يظهرها ، والله حجب نفسه بأسمائه . . وأسماءه عينه .

ولذلك يعبر الصوفي عن ظهور الحق في عين الخلق بكلمة . . هو لا هو (أى هذه صفاته وأسماءه لا ذاته) . . ويقول عن نفسه أنا لا أنا (بل هى ذات الله من ورائي في الخفاء تعمل وتكشف عن نفسها في ذاتي) .

يقول الله لنبیه: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ (نبي وإثبات) وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »
(سورة الأنفال - ١٧) فأسند الفعل إلى ذات نبیه ثم نفاه وأسنده إلى ذاته
في نفس العبارة ، وهذا سر من الأسرار العالية في القرآن - ومعناه أن
المخلوق له نصيب من الفعل كما أن الله له نصيب من الفعل ، ولا يصح
إسناد الفعل كله لله وإلا لانتفت المحاسبة . . ولولا استحقاق المخلوق أن
يكون مظهراً للحق تعالى ما ظهر فيه . . وسوف يكون لنا كلام طويل في هذا
الموضوع في سر القدر وسر الأنا .

والله ليس علة العلل (كما يقول أرسطو) بل هو سبحانه يخلق العلل
وليس بعلة . . فلو كان علة لارتبط بالمعلولات ولو ارتبط لم يصح له الكمال ،
فلا شيء يوجب على الله شيئاً إنما هو يخلق بمحض الجود والرحمة ويفيض
على مخلوقاته بمحض الكرم وليس باضطرار الضرورة .

والحق تعالى مرید غير مختار لأن أمره ليس فيه جواز وإنما أمره واحد
وإنما الجواز للممكن لأنه قابل للطرفين أما الله فهو أحدى المشيئة .

« حَقُّ الْقَوْلُ مِنِّي » (سورة السجدة ١٣)

« أَقَمْنِ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ »

(سورة الزمر : ١٩)

« وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » (سورة القمر ٥٠)

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (سورة يس ٨٢)

وفي ذلك يقول ابن عربي على لسان الذات الإلهية :

كن كيف شئت فإني كما تكون أكون

أي تردد واختار كما تشاء أما أنا فمشيئتي واحدة وهو ما تفعله بالفعل

وما تكونه آخر الأمر .

ومقام الهوية الإلهي هو مقام الجمع بين الضدين (الأول والآخر والظاهر والباطن من عين واحدة ونسبة واحدة بلا تقابل وبلا جهة) . . والعارف لا يصل إلى الجمعية مع الله إلا ببلوغه هذه الدرجة من الجمع بين الضدين (في ثبوت عينه وفنائه حال المشاهدة وانتفاء الجهات بالنسبة له) ، وهو بهذا يعلم مكانه من حيث هو صورة رامزة للحق « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ (نبي وإثبات) وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » (سورة الأنفال - ١٧) .

وبالنظر إلى العالم نراه كإنسان كبير في الجرم هو الآخر يجمع بين الضدين ففيه الحركة والسكون (جدلية هيكل) . . وفي هذا المقام يشير ذو النون المصري إلى إيراد الكبير على الصغير وإلى إدخال الواسع في الضيق من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع . . وفي الخيال نفس الشيء من الجمع بين الضدين .

وهذا هو مقام الهوية الإلهية وهو أعلى مقام وأخفى مقام وليس لأحد فيه قدم ، وبهذه الدرجة نفسها مقام الأحدية كما سبق أنه قلنا فالأحد هو الآخر مقام عزيز منيع الحمى ولم يزل في العمى لا يصح له تجل أبداً فإن حقيقته تمنع ذلك . يقول ابن عربي: إنه الوجه الذي له السبحات المحرقة فكيف هو ، فلا تطمعوا يا إخواننا في رفع هذا الحجاب فإنكم تجهلون .

والهوية يعبر عنها الإمام أبو العزائم بحرف « الهاء » (والهاء كما نعلم أعمق الحروف نطقاً ومخرجاً وصدوراً فهي تخرج من الصدر من الجوف ، بعكس حروف أخرى سطحية مثل الصاد والسين والميم تخرج من اللسان والشفيتين) ، ولذلك يتكلم عن « هاء الهوية » ويعتبر الصاد والسين رموزاً للجسد (الرسم والسور) .

وهذا كلام أهل المشاهدات .

ولا قدم في هذا الموضوع إلا لمن شاهد .

والعلم في هذا الموضوع علم قلبي كشفي وهبي تذكري لا يحصل بالاكتساب والاجتهاد والتعلم ، وإنما بالجود الإلهي والاجتهاد والاصطفاء والإلهام من الله لمن سبقت لهم الحسنى عند ربهم ، ولن جردوا نفوسهم وجردوا قلوبهم وأخلوها من الأغيار (كل ما سوى الله) والتزموا الطاعة والعبادة والبر والخير والذكر الدائم والاستغراق الكامل في حب ربهم والشوق إليه .

يقول الصوفي :

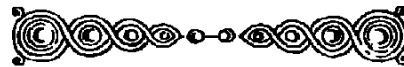
أنتم تأخذون علمكم ميتاً عن ميت ونحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت .

ويقول الشيخ أبو مدين :

أطعمونا لحمًا طرياً لا تطعمونا القديد
والعالم في هذا الباب هو من قال إني جاهل . . أما من يقول إني عالم
فهؤلاء هم الهالكون الذين يقول عنهم القرآن :

« كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (سورة الروم - ٣٢)
« فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »
(سورة غافر - ٨٣)

جعلنا الله وإياكم من أهل هذه العلوم فيها وحدها يكون حق اليقين .





الأسـ



قلنا: إن كل ما في الوجود هي تجليات الله في المظاهر .. فالله يلوح ويظهر في كل موجود على قدر استعداده لقبول ما يفاض عليه من الصفات والأنوار الإلهية وإذا كان القارئ قد فهم هذا الأمر واستوعبه فيسوف يكون سهلاً عليه أن يفهم ما نقوله في هذا الفصل عن الـ أنا .. وما يرمي إليه ابن عربي بالإشارة حينما يقول :

أنا لغز ربى ورمزه

أنا الصدفة التي تخفى اللؤلؤة (أى الهيكل الطينى الذى يخفى داخله الأنوار الإلهية) .

انا القمر تتجلى فيه الشمس (وشمس الإنسان ربه) .

أنا الظل الذى يلقيه السراج فى عالم الامتداد والإمكان (والسراج هو الله) مشيراً بذلك إلى الآية القرآنية « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا » (سورة الفرقان - ٤٥)

فظل الله فى الأرض خليفته وهو الإنسان ودليل الإنسان فى الأرض هو ربه أو شمسهُ والله قد ألقى بالإنسان فى عالم الامتداد والإمكان ثم هو يقبضه إليه قبضاً يسيراً بالموت وهو قبض يسير لأنه قبض إلى بعث وإلى حياة برزخية وليس إلى فناء .

وبالمنظور نفسه من الرؤية يقول الإمام أبو العزائم عن نفسه ويقصد الإنسان إطلاقاً :

أنا كنز ربي ورمزه

أنا مظهر لجمال طلعتة

ذاتي مظهر لكشف اللثام (الله يكشف عن ذاتيته في ذاتيتي وهي شطحة في غاية العمق) .

وهيكل ذاتي اللوح سُطّر بالسر

أنا الرمز المشير لكتر غيب وطلّسني مبانيّ الدنيّة

أنا الطين مشكاة مضيء بصورة (بصورة الأسماء والصفات) .

وكلها إشارات إلى أن الإنسان هو المظهر الذي تتجلى فيه الأسماء والصفات الإلهية على قدر استعداده لقبول الفيض الإلهي .. والنفس قابلية صرفة تتفاوت عمقاً بين واحد وآخر .

يقول ابن عربي :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعي لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأصنام وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
فما نراه من مظاهر الإنسانية في الأرض هو نتيجة تجلي الصفات والأسماء الإلهية في القوالب النفسية بحسب استعداداتها .

وما يظهر فيك ومنك إلا عينك (أي عين استعدادك) .

يقول الإمام أبو العزائم :

أنا نسخة من قبضة الكتر عندما تجلى بحسن الاسم والزينات
أنا الوصف والأسماء والشوق قاذني وقد رُفعت بين الوري راياتي
أنا شجرة الزيتون لا الشرق يحوني ولا الغرب يفهمني ببعض صفاتي

وذلك إشارة إلى الآية القرآنية التي تقول: إن مصباح النفس « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ » تنوياً بأن أنوار الله وأنوار الذات مطلقة لا تتقيد بالجهة والمكان والمقدار فلا هي شرقية ولا هي غربية .

ويقول أبو العزائم :

من الطين قد صاغ المهيمن هيكله وصيره كترًا لتفصيل مجمل
وقد سبق أن قلنا إن التجلي هو تنزل من الإجمال إلى التفصيل .. فالعلم ينزل إلى النفس مجملًا ثم يتفصل بعد ذلك بالتذكر والتعليم .. وما تحصيله النفس من معارف هو تفصيل ما أجمل من النفخة الإلهية عند التسوية .
« فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » (الحجر - ٢٩) .
وهي النفخة التي تتكرر بالنسبة لكل مولود بعد تسويته وحينما يصبح قابلاً للفيض الإلهي .

والروح عند ابن عربي هي الصورة الانعكاسية في القوالب لهذا النفخ الإلهي .

ويقول أبو العزائم متسائلاً :

من أنا والكيان يشغل قلبي
ادعى الحب والمحبة حظر
(أى بعد رؤية الله في آياته)

غيبته عن دار دنيا وأخرى
ثم يجيب على نفسه قائلاً :

إن قلت مصباح نور من جلالته
أو قلت صورته العليا مجمّلة بالنور
أو قلت قبضته العليا من أزل
فالقول لا يُدركن إلا لأمثالي
ر نور التجلي غيب متعالى
لاحت تشير إلى نور البها العالى

فالقول لا يكشف قدرى ومنزلتى
سرٌّ ؟ نعم لاح فى طين وفى حماء
ويقول عن الأولياء :

تراهم عيون الناس ناساً ونورهم
ويقول عن نفسه :

فظاهرى الرمز المشير لباطنى
ويقول فى نغم راقص جميل :

آه إن كشف الحجاب
يظهر الغيب المصـون
آه إن فكوا الرـموز
وأرى أنى صـورة
ويقول عن النفس الإنسانية :

مجمع الأضداد كثر غامض .
لم أبج بالغيـب فى لأنتى
فالنفس مجمع الأضداد لأنها تجمع بين حضيض سُفل العناصر وأعلى
عليين الأنوار الإلهية فهى (الثلج والنار قد جمعا برحمته) والإنسان فى حالة
البعد عن ربه تراب وطين وشهوات وغرائز ، وفى حالة القرب والجمع على ربه
نور على نور يرى يبصر ربه ويسمع بسمعه ، وهو فى الحالتين لا يفارق العبودية
فهو العبد لم يزل والرب رب لم يزل .

لوح آيات التجلى هيكلى جامع الضدين ختمى أولى
فالإنسان مجمع البحرين يلتقيان ولا يمتزجان بينهما برزخ لا يبغيان ..
بحر المادة وبحر الروح بحر هوان العبودية وبحر نور الألوهية بحر المُفارق

والمجانس .. ولا امتزاج ولا اتحاد ولا حلول .. وإنما يظل الرب رباً ويظل العبد عبداً ، والصراخ لحظة الكشف ورفع الحجاب ورؤية العبد بعين الرب .. الصراخ في هذه اللحظة بعبارات .. أنا الله .. سبحانه ما أعظم شأني ، هونقص من الصوفي وعدم تمكن وسوء أدب مع الله وفقدان للوعي وسكر وعدم كمال من العارف .. أعاذنا الله من الخذلان .

والروح مُجانسة للملكوت والملاً الأعلى في صفاتها ونورانياتها ، والجسد مفارق للملكوت والملاً الأعلى بكثافته وظلامه وغلظته ومجانس للشياطين بناريته ولكنه بالرياضة والمجاهدة يصفو ويرق ويمجانس الروح .

عجبت ومن ماء وترب ومن هوى ونار يشاكلها بكل مقام
يمجانسها صفواً فيخفيه نورها فيرقى إلى العلياء بالإكرام
يُرى في جوار الطهر في المقعد العلي ويُشهد في العالين بالإعظام
أيارسم من سُفل تصاغ وترتقى ؟! فيئن بحال أو صريح كلام
فيجيبه الجسد قائلاً .. « ولولا ظلام الليل لم يعرف الضياء » .

ولولاي ما جاهدت في الله مخلصاً ولولاي ما شُرِّفت بالإكرام
فبالمرض عُرُفت الصحة وبالسواد عُرُف البياض وبالسفل عُرُف العلو فكان
الجسد بهذا المعنى وسيلة إدراك ومعرفة ومعراج صعود إلى العلو وهذا شرفه .

وهذه الرياضة هي تزكية النفس بمجاهدة الجسد « نار المجاهدة نور المشاهدة » وستكلم عن هذه التزكية بتفصيل أكثر في حينها .

فرسمي (أي جسدي) معراج لحضرة قربه

ونفخته شمس تضيء حـدودي

والعكس صحيح أنه في حالة تدلَّى النفس إلى أحوال الجسد المادية واشتغالها بإشباع شهواته فإنها تثقل وتعم وتجانس الجسد في كثافته وظلاميته

وغلظته وهذا معنى ظلم الإنسان لنفسه .

والحركة صعوداً وهبوطاً هي حركة النفس ، أما الروح فهي دوماً في الإطلاق .. الروح في الجسد مثل الشمس في ماء البئر تظهر فيه دون أن تحيز .. كذلك النور الرباني .

نور معناه مثل شمس بماء

والروح دوماً مجذوبة إلى الله (إلى أصلها) وهي بالتالي تجذب النفس والجسد إلى العلو بينما الجسد متدنٍّ وفي حالة قصور ذاتي مادي يشد النفس إلى السفلى إلى ماديته .

تجذب الروح الهياكل للصفاء أعلى المنازل
إن أداروا الراح صرفاً أسكرت عال وسافل
والجذب الإلهي للنفس فضل وتقريب ، والجذب الجسدي للنفس إبعاد وتغريب .

جذبي لعالين إحسان وتقريب والجذب للسفلى إبعاد وتغريب
والسؤال الآن هو ماذا قبل ؟؟

ماذا قبل هذه التسوية في الأرحام ، ونفخ الأرواح في الأجساد ..
هل كان لنا وجود قبل ذلك .. وأين .. وكيف ؟ ! .

والإجماع على أنه كان لنا وجود قبل ذلك بدليل مشهد الميثاق في القرآن وهو المشهد الذي أخذ علينا فيه ربنا الإقرار ببروبيته قبل النزول إلى الأرحام .
« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » .
(سورة الأعراف : ١٧٢)

هنا كانت مواجهة . . الأبناء قبل أن يخرجوا من ظهور الآباء وقفوا بين
يدى ربهم والابن لا يأتي قبل الأب إلا أن يكون في اللازمان واللامكان
في العندية الإلهية والنفس ما زالت نوراً قبل أن تلبس جسدها الطيني .
يؤيد ذلك ما ورد في سورة التين الآيتين ٤ ، ٥ :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ »
والعارفون يفسرون هذه الآيات بأن الإنسان كان له طور نوراني في الأزل
كان فيه في أحسن تقويم قبل أن يرد أسفل سافلين في حشوة الطين والماء المهيّن .
والإمام أبو العزائم يردد كثيراً في أشعاره هذا الطور النوراني ، ويذكر
بالشوق والحنين موقفه بين يدي ربه في مشهد « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » ويطلب من الله
أن يرفع عنه الحجب ليعود إلى هذا المشهد ويتمتع برؤية وجه ربه ويسمع
خطابه في الأزل « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » .

ويؤلف هذا المشهد الأزلي موضوعاً محورياً في مشاهدات الإمام وهو حجته
على أن الإنسان له وجود أزلي نوراني قبل التصوير في الطين .
ولا عمر لي والبدء محتد نسبتى ودورة تلك الشمس بعض قوادمي
لقد كان موجوداً قبل أن تولد الشمس
ويحكى هذه القصة شعراً فيقول :

قد كنت نوراً ولا ملك ولا فلك في كثر أخفى يراني كل أبدال
والأبدال هم الأولياء الذين كانوا معه في كثر الجود الإلهي (أى في العلم
الإلهي) ومرة أخرى يسميه كثر المُجمل (أى الذى أجمل فيه كل شيء) .

وفي مكان آخر يصف هذه الحضرة الأولى وصفاً غامضاً :
إلى حضرة الإطلاق بدئي حيث لا سماء ولا أرض بحيطّة نون

ونون عند الصوفية هو بحر نور الأزل الذى بدأ منه كل شيء وأول قبضة من هذا البحر كانت النور المحمدى .

ونون كرمز وحرف هو الدواة التى جاءت منها كل الكلمات (كلمات الله التى لا تحصى) ولذلك يذكر القرآن الحرف (ن) مرتبطاً بالقلم .

« نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » (سورة القلم : ١)

ثم يذكر الإمام أبو العزائم أنه طاف بكعبة القدس العلى (وهى كعبة فى السموات تقابل الكعبة المعروفة على الأرض) وهو فى طوره النوراني :

طفت قبلاً بكعبة القدس حتى صح سعي إلى الجنب العالى وفى مشهد غيبي آخر يقول :

أطوف حوالى قدسه فى مشاهد علت عن إشاراتي سمت عن تعقلي
ومن حضرة الإطلاق وكثر المجل يتزل إلى كنوز الأسماء الإلهية (لتفيض عليه من أوصافها وأحكامها) .

صرت لا كون لى أعدت لبدنى فى كنوز الأسماء أحيا حبوراً
وفى كنوز الأسماء يتم إمداده وتخصيصه بصفاته المتفردة المعينة .

ثم يأتى بعد ذلك مشهد الميثاق بينه وبين ربه ويسمع الخطاب الرباني فى الأزل « أأست بربكم » ثم يكون إهباطه من حضرة « الجمع » إلى حضرة « الفرق » فى هيكल اللحم والطين فى الرحم ، ثم يتزل إلى الدنيا وينسدل عليه حجاب الرغبات وتشتت الحواس فينسى تاريخه وتسجنه الدنيا فى إطار الزمان والمكان واللحظة والنزوة فيتزل إلى أسفل سافلين .

ويذكر الإمام لقطات من هذا التاريخ ويشعر بالحسرة لما هو فيه من سجن ، ويخن إلى الإطلاق وإلى الصفاء الأول :

كنت روحاً أشتاق والنور حولي
ظِلُّ كَوْنِي قد حَجَّبَ الروح ويحي
كيف صبرى من بعد رؤية وجه
أنت يا جسم قد سترت حبيبي
خلَّ رُوحِي تفر لله إني
وفي مكان آخر :

أعدنى إلى بدئى لأفتى عن السَّوَى
أَلِخْ لى نور الوجه جَمَلٌ لطيفتى
ويعاوده الحنين إلى الأوليّة :

أحن إلى العود الذى كان أولاً
لأشهد نور العين بالعين أشرقت
إلى البدء تحنانى إلى البدء صبوئى

ويجود عليه ربه بمشهد العود فيغنى منتشياً :

أعدت إلى العلم اللدنى مُجْمَلاً
وفي مكان آخر :

أعدت إلى أزل فلم أر غيره

ويذكر مشهد « أَلَسْتُ »

لى تَجَلَّى من قبل كن فأرانى
لم يكن فى الشهود ليس لأنى
فيعينونى التى رآته قُبَيْلاً
من « أَلَسْتُ » وقبلها كنت نوراً

سر بدئى والعود بعد شتات
منذ بدئى أرى بلاحيطات (بلاحدود)
لم تُحَجَّبَ بحيطه الكائنات
سورة التين وضحت كلماتى

كل يوم شأن جديد وروحي تشهد الحق هيكل مرآتي
 فالإنسان أزل وهو عند الصوفية مجمع حقائق (كل ما تراه في الكون
 مفرداً تجده في الإنسان مجمعاً فهو الكتاب الجامع والكون صفحاته ، ففيه
 مادة الكون وعناصره ، وفيه طين الأرض ، وفيه سماوات داخلية لانهاية
 وفيه أنوار الشموس وناريتها في غرائزه وإشراقاته وإلهاماته ، وفيه الحقائق
 الغيبية كلها فقلبه عرش الرحمن ونفسه اللوح وعقله القلم وهيكله السدرة
 ومادته الطور والكرسى ومنصة التجليات التي تتجلى فيها الأسماء والصفات
 الإلهية ، وهو الرق المنشور الذي سطر الله فيه قدره ، وفي داخله البحر
 المسجور ، بحر النور المتفجر الفياض بالوجود الإلهي . . وجسمه المشكاة ،
 وبصيرته الزجاجية وقلبه المصباح وعبوديته لله هي مدده الذي يستمد كالزيت
 النور الإلهي الذي يضيء دون أن تمسه نار ، كما جاء في إشارات سورة
 النور) .

« اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ (وهذا المثل هو الإنسان)
 كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ
 شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
 نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ » (النور : ٣٥)

والإنسان هو المثل الذي ضربه الله .

وعن جمعية الحقائق في الإنسان يقول الإمام أبو العزائم :

متى حققتني تجهل وتعلم
 بأنك عن هويته تنادي

وأنا لستوا الرحمن عرش
ولوح خُطَّ فيه بلا مداد
وكُرسى . لأسرار تجلت
ومعراج به يرقى العباد

وفي مكان آخر يقول عن جمعه لتلك الحقائق في نفسه :

أنا سُدرة المنتهى واللوح والكرسى
أنا العرش والقلم المعلى عن نفسى
أنا الكون والأين المفاض بداية
أنا الكل فى أصل الأصول بلا لبس
أنا القدس فى التنزيه والحسن فى الصفا
أنا الروح إن حققت فى برزخ الرّمس
أنا الصورة العليا التى عنيّ انجلت

أنا رمز مجلى الذات فى حالة الانس
والإنسان عند الصوفية هو البيت المعمور والكعبة (فهو معمور بالأنوار
الإلهية) ويفسر الإمام أبو العزائم جمعه لكل الحقائق قائلا :
لأني عنه (عن الله) صورة الكل فى الكل ، والإنسان صورة الكل
فى الكل ، بسبب النفخة التى نفخها الله من روحه فى صورته الطينية ،
وروح الله جامعة لجميع الحقائق وكلية فى صفتها وهذا عقد الله للإنسان
الخلافة وأسجد له الملائكة .

وأكمل الصور وأتم النشآت الإنسانية هو محمد عليه الصلاة والسلام
والصوفيون يتكلمون عن الروحانية المحمدية فى تعظيم شديد فهى أول ما خلق
الله من نوره « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » حديث شريف . .

فهو أول الرسل في الخلق الروحاني وخاتمهم في البعث الجسدي وروحانيته كانت ممددة لجميع الأنبياء قبل بعثته نبياً بالجسد وهي مازالت تمتد بالأنوار لجميع الأولياء والوارثين ، وهو الوسيلة والباب الموصل إلى حضرة الله بالنسبة لكل من يطمح في المكاشفة والمشاهدة ، وهو الشفيع الأعظم يوم القيامة . . . وليس في هذا التعظيم أى رائحة من دعوى ألوهية فكل العارفين يشبّون له تمام البشرية وكمال العبودية وأنه مخلوق لله ، ولكنهم يجعلون لروحانيته أولية في الخلق وفضلاً في الإرشاد والإمداد والشفاعة والوسيلة ، وهي أمور لا تناقض الشريعة . . . وهم لا يقولون بأن النبي يمد تابعيه من عنده ، فما عنده شيء ، وإنما هو قاسم والله معطي فالممد من الله ولكن محمداً هو الوسيلة والباب وأتباعه يحشرون على قدمه ويتناولون من يده ، وهذا حال كل أمة مع إمامها .

وهم يؤسسون هذا العلم على المشاهدات والمكاشفات اليقينية العينية ، وليس على المغالاة العاطفية والتحيز أو العصبية الدينية (والصوفيون أكثر خلق الله سماحة وتسامحاً) .

ويتفق في هذا الرأي ابن عربي والجيلي وأبو العزائم والنقري والشاذلي والدسوقي وجمهرة الصوفيين والعارفين من أهل الفتوحات ، وقد وصلوا إلى هذه المكاشفات كل على انفراد فهم لا يرددون بها علوماً نقلية أو يقولون بها تقليداً .

والقول بحياة محمد عليه الصلاة والسلام الدائمة والسارية والممددة لأتباعه لها سند قرآني فالشهداء في القرآن أحياء عند ربهم يرزقون ولا يصح أن نقول عنهم قتلوا أو ماتوا ، وإذا كان هذا حال الشهداء فالأنبياء والصديقون أولى ، فهم مقدمون على الشهداء في الرتبة .

« فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » (فجعل النبيين مقدمين على الكل
(النساء : ٦٩)

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » (الأنبياء : ١٠٧)
(وفي كلمة العالمين إطلاق في المكان والزمان والتاريخ فهو باب رحمة
ووسيلة إمداد لكل من يسلك على قدمه ويدعو بدعوته في أى وقت وفي أى
مكان) . . « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ » (سبأ : ٢٨)
أما أوليته في الخلق فالإشارة عنها في القرآن في الآية :
« قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » (الأنعام : ١٦٢) .

والقرآن يقدم جميع الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب
وموسى وعيسى على أنهم مسلمون ، وقد جعل محمداً عليه الصلاة والسلام
في الآية أولهم مع أنه آخرهم بعثاً . . فلم يبق إلا أن يكون أولهم خلقاً .
وتتكرر نفس الإشارة في الآية القرآنية التي يوافق فيها الله النبيين لنصرة
محمد عليه الصلاة والسلام ولا تفهم تلك النصرة إلا أن تكون لجمعية الأنبياء
وجود مستمر لا ينتهى بموتها فهي تظل تتناصر عبر الأزمان والأمكنة .

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّمَّنْ لَمَّا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ
إَصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

(ال عمران : (٨١ ، ٨٢)

هي إشارات قرآنية ذات مغزى .

وكما قلنا إن عمدة هؤلاء القوم هي مشاهداتهم ومكاشفاتهم وعلمهم الذى يتلقونه من منابعه اللدنية الصافية ويكاشفون به معاينة .

ونظرية الإنسان الذى يجمع فى نفسه كل الحقائق التى يقولون بها تجعل للإنسان سيادة هائلة على الكون والظواهر والأمور الغيبية ، وترفع درجته إلى ما يلى الله وتجعل كل ما خلق الله يأتى بعده .

وهذا حال الإنسان إذا أدرك رتبته ووعى حقيقته وتصرف على مقتضى هذا التشريف الرفيع الذى شرفه به خالقه .

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » (الإسراء : ٧٠) .

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » .
(الجناتية : ١٣) .

هذا التسخير الشامل الكلى لكل شئ فى السموات والأرض للإنسان يؤيد هذه الرتبة (ونحن نرى الإنسان الآن يمشى على تراب القمر ويرسل سفنه إلى المريخ) .

يقول الله لهذا الإنسان الكامل جامع الحقائق (فى كتاب المخاطبات للفقري) .

سرك يرى بدون عين ويسمع بدون أذن .

سرك يعيش فى الأبد وجسدك يعيش فى المواقيت .

سرك لا تحيط به الأبواب ولا تتعلق به الأسباب .. أنت منى .. أنت تلىنى ..

وكل شئ فى الوجود يأتى بعدك .. لا شئ يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك ، فأنت أقوى من الأرض والسماء أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء ، أقوى من كل ما بدا .. فى دنيا وآخرة .

إذا تحققت بسرك تحققت بى . . أنا الذى منه كل شىء .
ويصف القرآن الملائكة المقربين بأنهم : « العالين » ويصف المؤمنين
بأنهم « الأعلون » وبذلك يرفع الإنسان المؤمن فوق الملائكة المقربين . .
« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ » (محمد : ٣٥) .
ويخاطب إبليس قائلا : « اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ » (ص :
٧٥) والعالون هم الملائكة المقربون الذين لم يؤمروا بالسجود وفى ذلك يقول
الإمام أبو العزائم :

وفى « أتم الأعلون » سر مكاتى
تجاوزت « العالين » فى فلك القرب

هذه حقيقة الإنسان وهذه مكانته . .
ولكن إذا غفل الإنسان عن هذه المكانة وتدنى وانحدر وأسلم نفسه إلى
طبيعته وغرائزه البهيمية ومادته العمياء لتقوده ، فإنه ينزل بها إلى درك الهلاك
الأبدى .

والشيطان بحسده وغيته يحاول دائما أن يُضل الإنسان عن ميراثه
الروحى ويحبس انتباهه فى طبيعته الكثيفة وغرائزه اللزجة حتى يورده مهلكه
ويشركه مصيره « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا
مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » (فاطر : ٦)
« قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ » (القصص : ١٥)
إنه صراع وابتلاء مُمتحن فيه المعادن ليعرف الخبيث من الطيب ، أما
الخبيث فيركم فى جهنم وأما الطيبون فيدعون إلى مكاتهم وتفتح لهم السموات
وتسخر لهم كنوزها فى نعيم خالد لا ينتهى .

ويقول الإمام أبو العزائم عن مدد الرحمة الحمدي :
أشاهد أنوار الحبيب بباطني
يناولني صرفاً من المشروب
ويقول :

وفى نعم سر الحبيب ونوره
« وفيكم رسول الله » قد طمأنت قلبي
إشارة إلى الآية القرآنية « وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ
مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » (الحجرات : ٧) .

وهو يجعل من هذه المعية الحمديّة إشارة لمعّية دائمة مطلقة من الروح
الحمديّة لكل الأتباع والوارثين . . ويقول عن إمداد الروحانية الحمديّة للأنبياء
من قبله :

في آدم أشرقت أنوار طلّعه أخفى ظهورك فيه كل صلصال
ويقول عن أوليّة رسول الله :
كان نوراً في البدء منه أضاءت كل شمس من حضرة واحديه
نوره البدء أصل كل جمال من لدى البدء لاح للآخريه
قبضة شعشت ضيا كل فرد مظهر الحق ظاهر للبريه
ويقول عن مشاهداته للرسول في الأزل :

وروحى في التجريد يا خير مرسل لقد شهدت أنوار ربتك المثلى
وهو عين ما يقول به ابن عربي عن رتبة محمد عليه الصلاة والسلام .
وعن جمعية الحقائق في الإنسان . وابن عربي في الواقع رائد لهذه النظرة
الصوفية وأستاذ لهذه المدرسة في الإنسان الكامل والنور الحمدي . . وهو
يمضي إلى عمق أبعد من الباقيين ويتتبع أعيان المخلوقات في الأزل ليجيب

عن السؤال المعضل .. هل لأعيان المخلوقات (أى ذوات المخلوقات)
أحقية وقدم ووجود مستقل مع الحق تعالى فى الأزل أو أنها منبثقة منه ولا ذاتية
لها ولا استقلال ؟ ؟

هل نحن أمام وحدة وجود مطلقة ؟ « والله هو المعبود الوحيد والموجود
الوحيد وكل شئ منه » . وهو بذلك يكون عابداً لنفسه ، ويكون التكليف
والحساب والجزاء علامات استفهام لا معنى لها .. أم نحن أمام ثنائية
أزلية وشفعية أزلية .. والوتر « الواحد » مشفوع من البداية ومن القدم
بالعدد ، فهناك الله ، وهناك ما سوى الله .. هناك الرب والعبد أزلاً وأبداً .

يقول ابن عربى إنه لا يمكن نفي السوى مطلقاً فالسوى ثابت ولا يمكن
أن يكون العبد عين المعبود .. وهو لهذا يقول بتعدد القدماء وينفى عن هذه
النظرة التعددية أى شبهة شرك بأن يقول إن كل ما سوى الله فى علم الله من
الأزل وتحت هيمنته .. كل ما سوى الله من أعيان ثابتة ، عابد لله طوعاً
أو كرهاً محتاج إلى الله فقير إلى الله فكل هذه الأعيان الأزلية هى أعيان
فى العدم .

والعدم ليس معدوماً عند ابن عربى وإنما هو الشق الآخر المطلق المقابل
للوجود الإلهى المطلق ، الظلام الذى يقابل النور والنفى الذى يقابل الإثبات
والنار التى تقابلها الجنة .

يقول الإمام أبو العزائم بهذا المعنى :

كل شئ سواك نار حمية وغرامى أنى أنال المعية
ويصف ابن عربى البداية بأسلوبه الإشارى الرمضى قائلاً إن العدم
من البداية قام للوجود المطلق كالمرآة فرأى فيه الوجود صورته ، كما رأى
العدم صورته فى مرآة الوجود ، فرأت جميع الأعيان (الذوات) الثابتة

في العدم صورتها في مرآة الوجود فأصبحت ممكنات لكل منها وجه إلى العدم ووجه إلى الوجود يتلقى الفيض من الله وأدركت نفسها في مرآة الله وكانت من قبل تجهل نفسها في العدم ، وتشوقت إلى الوجود وإلى الخروج من العدم (والعدم نار) فطلبت بلسانها الشوق من الله أن توجد فرحمها الله بإيجادها وأعطاه لبسة الوجود وأفاض عليها من أسمائه وصفاته فقبلت كل عين من هذه الصفات على قدر استعدادها ، فإن كان الطاووس جاء طاووساً والخنزير خنزيراً فلأن نفس الأول كانت طاووسية لم تقبل إلا الصفات الطاووسية ونفس الآخر كانت خنزيرية لم تقبل إلا القالب الخنزيري . . ولكن الله أفاض على الكل من وجوده اللانهائي فقبل كل واحد على مقتضى حقيقته . « وما حكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم » .

هكذا يقول الله لكل يوم القيامة . .

« لم يظهر فيك من أحوال القدر وصفاته إلا حكم عينك وذاتك » .

« كما كنت في ثبوتك ظهرت في وجودك » .

« أنت ما قابلت في العالم إلا صفتك وما قضيت عليك إلا بما أضمرته

أنت في مرادك » .

ما أعطيناك إلا ما كان في نيتك ولا حرمانك إلا بما حرمت منه نفسك . .

ومن أضمر في نفسه رغبة في التغير غيرناه ، ومن أضمر رغبة في التطهر طهرناه .

ومعنى هذا أن قضاء الله المسبق بعلمه الأزلي تابع لأهلية الأعيان الثابتة

واستعدادها وما أضمرته فيها منذ الأزل ، وليس مفروضاً عليها ولا مقحماً

عليها . . فلا ظلم هناك . . ولا يظلم ربك أحداً . . إنما هو يخرج الخبء . .

ويجلو المضمّر في العدم .

« أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
(النمل : ٢٥) .

« إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ » (التوبة : ٦٤) .
« وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » (البقرة : ٧٢) .
« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ »
(محمد : ٢٩) .

وهذا سر القدر . .

لاثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد . . فقد اختار الرب
للعبد ما اختار العبد لنفسه فأصبح قدر الله وقضاؤه هو عين حرية العبد وطبعه
وحقيقته .

ولا يصح للعبد أن يقول لله . . « لقد خلقت لي طبعي الشرير » ، فهذا
زعم مكذوب فالأعيان الثابتة (جواهر النفوس) أزلية في العدم غير مخلوقة ،
وإنما خلق لها الله لبسة الوجود وألهمها خيرها وشرها في ذات الوقت فقبلت
الشر ورفضت الخير « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » ، (الشمس : ٨) .

يقول ابن عربي عن هذه الأعيان الثابتة إنها ليست بجعل جاعل ،
وإن لها استقلالاً اعتبارياً وإنها موجودة لذاتها لا لعلة ، وإن لها أحقية كما
أن لله أحقية . . أنت يا هذا علة لكونك كذا . . أنت معلول بعلتك والله
خالقك فافهم وهذه الأعيان ليست ذرات روحية كما عند لبيتر ، كما
أنها ليست مثلاً أفلاطونية لها أشباح على الأرض كما عند أفلاطون .

والله عالم بهذه الأعيان وبما ستكون عليه وهو حاكم عليها ، ولكنه لا يحكم
على أحد إلا بما يجانس ضميره وخفاياه ، لا جبر ولا إكراه . . وإنما هو يخرج
المضمر ويفضح المكتوم ويظهر كل واحد على حقيقة نفسه لا غير .

ومعنى هذا أن التشخص قديم وأزلى وبقى إلى الأبد . . كان في العين الثابتة قبل أن تتسلم من الله لبسة وجودها ، وهو باق فيها بعد أن تخلع هذه اللبسة بالموت ، وهو ملازم لها في البرزخ ثم هو يعاودها بعد التجسد في البعث ، وهو مدخلها إلى جنتها أو نارها . . وهو أبدي مثلما أن الجنة والنار أبديتان ، ولا يظهر في مرآة الوجود إلا حكم العين فالعين قديمة وأزلية في حالة تجريد . . إنما يعطيها الخالق لبستها وحلتها الوجودية فيظهر حكمها .

والله في جميع الأحوال رحمة صرفة ، وكرم صرف بالنسبة لهذه الأعيان الثابتة الأزلية . . يعطى بلا حدود ويفيض بلا حدود . . وفرحته بالنفس الضالة العائدة إليه أكثر من فرحة الأم بوليدها التائه الذي رجع إليها .

وهو قائم على جميع هذه الأنفس بالتربية والتركية والإرشاد والإنذار والهداية ، ما قبلت تلك الأنفس الهداية - « هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » - (الأحزاب : ٤٣) . وهذا الإخراج من الظلمة إلى النور هو عين ما يقوله ابن عربى في الإخراج من العدم . . « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » ، (هود : ٥٦) .

والله متجلي بهذه الأفعال في الكون كله .

وهو يفعل هذا تفضلا علينا لنفنع وننتفع ، ولكنه مستغن عن هذا كله ، فما جرى بالنسبة له علم قديم ، وتحصيل حاصل لا زيادة فيه ولا نفع ولا مصلحة . . كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان .

وعلاقة الله بهذه الأعيان الثابتة هي عن طريق أسمائه وصفاته ، فإن الحضرة الهوية الذاتية لا تقتضى نسبة ، فهي لذاتها في ذاتها ، ولكن ظهور الأعيان الثابتة بصفة العبودية والفقر والاحتياج استدعى النسبة من هذه

الذات من أجل الإيجاد فظهرت الأسماء والصفات لتفيض على تلك الأعيان أحكامها ولبستها المناسبة .

ومن هنا كان للحق تعالى حكمان ، حكم ما له من حيث هويته ، وهو رفع المناسبة بينه وبين عبادته والحكم الآخر وهو الذى ظهرت به الربوبية الموجبة للمناسبة بينه وبين خلقه وبها أثر في العالم وتأثر به فهو يرضى ويسخط ويكره ويعاقب ويكافئ .

« قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » ، (الفرقان : ٧٧) .

فالشق الأول « ما يعبا بكم ربى » ، هو حكم الهوية التى لا مناسبة بينها وبين الخلق ، والشق الثانى « لولا دعاؤكم » ، هو الذى أدى إلى ظهور حكم الربوبية الذى تنزل به الله بأسمائه وصفاته ليرحم خلقه ويستجيب لدعائهم ومن هنا كان للحق تعالى خصوص وصف ، هو الغنى الذاتى ، وللعبد خصوص وصف هو الذلة والإفتقار الذاتى (وهما معراج الوصول إلى الفضل والمدد) .

ومن هنا لا يكون هناك خلط أبداً بين خلق وحق ، فلا يمكن أن يصبح العباد أرباباً مهما تحلوا بصفات سيدهم ، فكل طرف حافظ لرتبته فى جوهره ولا سبيل إلى عبور البرزخ بين العبودية والربوبية أبداً إلا أن يكون الأمر ادعاء وكفراً ، والعبد « جُنُبٌ » كله فى نظر ابن عربى لا يجوز له لمس المصحف حتى يتحلّى بصفات سيده وحينئذ تكون يد الحق هى التى تمس المصحف .

والأسماء الإلهية عند ابن عربى قديمة أزلية ، وهى عين المسمى . .

كان الله ولا شىء معه ، وكان فى هذه الأثناء يعلم ويريد بقاء الأعيان فى العدم ، وكان حياً بذاته يرى ذاته ، وكان أحداً بذاته ، وهى كلها أسماء

معه في أزاله مثل الحى المريد البصير الأحد ، أما كونه رزاقا فبالقوة أزالا وبالفعل عند الخلق فهذا الاسم نسبة لا تُعقل قبل ذلك .
ومن هنا نرى ابن عربى يقول مثل المعتزلة بأن الأسماء عين المسمى ،
ومثل الأشعرية بأن الأسماء نسبة بين الله وبين عباده .
ولا يمنع عند ابن عربى أن تتعطل بعض الأسماء ولا يلزم ما تعطل منها
حكم ما لم يتعطل ، والإمام أبو العزائم يقول فى الأسماء كلاماً مشابهاً ،
فالأسماء الإلهية فى كثر الذات .

مقتضى أسمائها فى كثرها

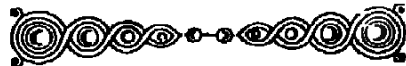
وهى تنزل لنفيض صفاتها على العباد بسبب افتقارهم وطلبهم وحاجتهم :
مقام العبادة مقتضى حبه الذى

به تظهر الأسماء من عالم الغيب
افتقار العبودية هو سر هذا الإمداد
والأسماء والصفات هى التى تصور القوالب فى الأرحام ، وهى التى تمد
المخلوقات فى تطورها .

تنقلت فى الأسماء قبل تطورى
وأبرزت فى رسم يلوح بسور
يقول أبو العزائم فى حكمة جميلة من حكمه :

« السعيد فى الخلق من عرف حكمة إيجاده وسر إمداده » .

واقراً المقال من أوله ففيه محاولة للجواب عن هذا السؤال الكبير .



المشهد التوحّيدى وكشف الحجاب



برغم كلام ابن عربي عن ثنائية الوجود وعن تعدد القدماء « فالأسماء الإلهية أزلية قديمة .. والأعيان الثابتة (وهى أصل الخلائق) أزلية قديمة ولها أحقية مثلما لله أحقية » يعود ابن عربي فيقول إن الأسماء هى عين المسمى وإن أعيان الخلائق هى فى علم الله أزلا قبل إيجادها وهى تحت حكمه وهيمته ... وبذلك تنضوى هذه الكثرة الكثيرة مرة أخرى فى الواحد وتندرج الأعداد فى الواحد ويعود الموضوع إلى لغز الأحد جل جلاله لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

والسؤال .. أليس لنا من سبيل إلى الخروج من هذه الكثرة المتكثرة وشهود الله فى وحدانيته . والجواب نعم ولا ..

لا مدخل لأحد إلى رؤية الذات والى هو فهذا غيب الغيب ولكن تجلّ أنوار الذات أو سبحات النور التى حول الوجه .. للعارف إليها مدخل وذلك بالخروج من عالم الكثرة « وهذا هو النفاذ من أقطار السموات والأرض » ولا يكون ذلك باجتهاد أو علم نقلى أو كسبى وإنما بفضل إلهى وسلطان إلهى .. بعد تصفية النفس وتطهيرها وإعدادها لهذا المشهد العلىّ .

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »
(سورة الرحمن ٣٣)

وهذا هو المعراج إلى حضرة الرب وهو حظ النبي والعلماء الوارثين السائرين على قدمه .

ومحمد عليه الصلاة والسلام هو الوسيلة إلى هذا الفضل .

« وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » (سورة المائدة ٣٥)

ولا يعنى هذا امتناع أى كشف بدون الوسيلة المحمدية . فابن عربى يقول إن التصفية الفلسفية والأخلاقية عن غير طريق نبي أو شرع يمكن أن تؤدي إلى حالات كشف (عن طريق الأرواح الملكية) ولكن لا يتجاوز الأمر انتقاش بعض صور الملوكوت في النفس .. وهذا حدُّها .. وهذا ما نراه بين رهبان البوذية واليوجا أو زهاد الصوامع .. أما التصفية الشرعية للنفس على قدم نبي فإنها توصل إلى معرفة الحق تعالى عن طريق روحاني إلهي وميراث محمدي .. والأمر يختلف في الدرجة والرتبة والمدى .

والإعداد لتنزّل هذا الفضل العظيم يكون بالرياضة الروحية التي يسمونها التصفية أو التخلية (أى إخلاء النفس من الأغيار .. من كل ما هو غير الله) .. والتخلية (تخلية النفس بالذكر الدائم والعبادة والعمل الصالح والبر والخير) والتعلق (حب الله والتعلق به) والتخلق (التخلق بأسماء الله الحسنى .. الرحيم الرؤوف الودود الحليم الصبور الشكور العليم الخبير المعطي الوهاب .. فيحاول المرید أن يتخلق بأكبر قدر من هذه الأخلاق الإلهية) والتحقق (والتحقق هنا ليس تحقيقاً بالربوبية فهذا مستحيل وإنما التحقق المطلوب هو التحقق بالعبودية الكاملة وصفاتها الافتقار . والاحتياج والخشوع والخضوع .. والذل لله والتبرى من دعوى الأفعال وإسناد كل نجاح لله .. والتحقق له معنى آخر هو أن يتحقق الإنسان بربوبته الشريفة وبمكانته كمجمع حقائق وكصورة مثال أقامها الله على مقتضى أسمائه ليكون لها الخلافة .

وأثر هذا التحقق هو الشعور بالمسئولية عن كل فعل وعن كل خاطر وشكر الله على عطائه ومنته) .

يقول ابن عربي عن بداية سيره في الطريق :
خرجت عن كل ما أملك خروج الميت من أهله وماله .
وهذا رمز جميل لفعل التجرد والتصفية والتخلية التي ذكرناها . فهنا نرى الصوفي يخرج عن ماله وجاهه وسلطانه وجميع حظوظه الدنيوية ويتجرد لربه .

يقول ابن عربي .. ما سموا المال مالا إلا لأن هوى النفوس يميل إليه .
وهوى النفس أخطر معبود يجب التغلب عليه وهو أخطر معبود .. لأنه لا يُعبد شيء إلا به ولا يُعبد هو إلا بذاته .
« أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ » (سورة الجاثية ٢٣)
يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

فلم يدع الرسول إلى قتل الهوى وإنما إلى تعديل مصرفه وإلى حسن توجيهه إلى المعبود الأمثل ولهذا يجعل الزاهد هواه فيما عند الله ويجعل العارف هواه في الله ذاته .. وبذلك يكون زهد العارف مختلفاً تماماً عن زهد الهنود أو زهد رهبان الصوامع فهؤلاء يقتلون نفوسهم ونحن نحياها . هؤلاء يقتلون الشهوة والهوى ونحن نختار لها أحسن مصارفها .. وهذا هو اختلاف الطريق الإسلامي عن أى طريق .

والزكاة وسيلة تصفية وتجرد لأنها خروج للإنسان عن بعض ماله والزكاة رمز لعرفان المالك الحقيقي والمتصرف الحقيقي وهو الله فهي خروج بالنفس من دعواها .

وكذلك الصيام تجرد عن اللوازم الجسدية .

وكذلك السجود تجرد عن أنا ودعاؤها وكبريائها .

والتحقق بالعبودية الكاملة أهم وسيلة لاستدرار الفيض الإلهي لأن مقام العبودية مقام قابل للنفحة الإلهية في أقصاها فكلما كنت عبداً زادك ربك فضلاً .. رؤية الإنسان لعجزه وضعفه وذلته وقلة حيلته وجهله وغفلته ونقصه وهلاكه إن لم يتلق الترشيح والهدى من ربه هو الذى يعجل بالفضل فتفيض عليه الأسماء من كمالاتها .

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبرياء » (حديث نبوى)
وقد تؤدى التصفية إلى الفتح وقد لا تؤدى إليه والله فعال لما يشاء ولا يوجب أحد على الله شيئاً .. وقد يحجب الله عبده المخلص عن المشاهد الغيبية لأنه لا يحتملها ولأن فيها متالف لعقله ونفسه .. وقد يفتح الله على المرید المدعى الكذاب ليفتنه ويبتليه فيؤدى به الفتح إلى دعوى الألوهية والهلاك الأبدى .

والفتوح عند ابن عربى ثلاثة .. فتوح العبارة وفتوح الحلاوة فى الباطن وفتوح الكرامات والمكاشفات .

وبفتوح العبارة تخرج الكلمة من الصوفى وعليها نضارة وطلاوة فتدخل القلوب وتستكن فى سويدائها كالسهم المسددة ويُجعل لكلامه القبول عند الناس والأثر الفورى عند من يسمعه والقدرة السحرية على التغيير والتبديل .
وبفتوح الحلاوة فى الباطن تحلو الخلوة وتلد للصوفى فلا يشعر فيها بوحشة مهما طالت وتتحول إلى حوار داخلى وإلهامات وواردات إشراقية من الحق تعالى تجعل من وحدته أنساً ومعية دائمة .

وفتوح الكرامات وخرق العوائد والمكاشفات يروى منها ابن عربى قدرة

روح المريد على تدبير عدة أجسام في وقت واحد فيظهر الصوفي في أكثر من مكان في وقت واحد (وهؤلاء هم الأبدال) وهو أمر خارق في الدنيا وأمر عادي في الآخرة لأن النشأة الأخروية تعطيه بطبيعتها .. ويقول ابن عربي إنه لا عجب في هذا الأمر .. ألا تدبر الروح الواحدة أعضاء جسمية مختلفة ومتعددة في الدنيا ..

وموضوع الكرامات وخرق العوائد موضوع يطول وليس هذا مكانه ولا أهمية له عند العارف ، بل إن الوقوف عنده يعطل هجرة المريد إلى ربه ويفتنه في نفسه فيدعى الولاية ويجمع حوله الناس ، وقد يتخذ من الأمر وسيلة إلى الجاه والسلطان والثراء فيهلك وينتهي أمره إلى الخذلان . ولهذا كان الوقوف عند خرق العوائد والالتفات إليها وحكايتها أمراً مكروهاً ، والصوفي الحقيقي يعتبرها في حكم العورة التي يجب سترها وإنكارها ويراها سراً بينه وبين ربه لا يصح البوح به أو الخوض فيه .. وبهذا يثبت للفتنة ويدل بسلوكه أنه كان في هجرته قاصداً لربه لا لأي شيء آخر ، وبهذا يرتقى إلى أعلى درجة في الفتوح وهي المشهد التوحيدي الذي وصل إليه محمد عليه الصلاة والسلام في معراجيه وهو رؤية أنوار مجلّى الذات الإلهية .. ويصف العارفون هذا المشهد بأن جميع الرسوم والمعالم المادية تختفي فيه وتمحق وكذلك جسد العارف ذاته يختفي ، ويتجرد العارف إلى وعي مطلق لا جسد له . يرى أينما تولى نوراً لا كيف له ولا وصف ولا حدود ولا جهة . ويحبب الرسول عليه الصلاة والسلام على من سأله كيف رأيت ربك قائلاً .. نور أنى أراه .. ويصف القرآن هذا المشهد قائلاً :

« مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى »

(سورة النجم ١٨)

ويقول الصوفي في حيرة .. زجَّ بي في الأنوار .
وقد يؤدي هذا المشهد إلى حالة من الذهول والجذب والجنون وفقدان
العقل وقد يصاحبه فناء عن الفناء وغيوبة فيصرخ الصوفي وهو في حالة
سكر .. أنا الله سبحانه ما أعظم شأنى .
ويصف ابن عربي مثل هذه الدعاوى بأنها عدم كمال وعدم تمكين وسوء
أدب من المريد على بساط الأنس الذى مده له ربه .
ولهذا يقول الإمام أبو العزائم عن العارفين الكُمَّل :
على بسط الإيناس يخشون قدره لأن مقام الأنس سر المتالف
ويصف ابن عربي هذا المشهد بأسلوبه الإشارى الجميل قائلاً :
إذا فنى ما لم يكن وبقي ما لم يزل .. حينئذ تطلع شمس البرهان لإدراك
العيان ، فيقع التنزه المطلق المحقق فى الجمال المطلق وذلك عين الجمع
والوجود ومقام السكون والجمود ، فترى العدد واحداً ولكن له سير فى المراتب
فيظهر بسيره أعيان الأعداد ، ومن هذا المقام زل القائل بالاتحاد فإنه رأى
مشى الواحد فى المراتب الوهمية ، وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره
عن أكثر الخلق فغوره بعيد والتلف فيه قريب ، فإن من وقف فى هذا المشهد
دون تمكين ربما قال أنا من أهوى ومن أهوى أنا فهذا نستره ونكتمه .
وفى هذا المقام قال الحلاج :

مازجت روحك روحى فى دنوى وبعادى
فكما أنت كما أنك أنى ومرادى

وقال قولته الشهيرة .. ما فى الجبة إلا الله .
وهو كلام فيه دعوى اتحاد وحلول والوهمية ووحدة وجود يحظرها الشرع .
ويعتذر الصوفيون للحلاج بأنه كان غائباً عن وعيه فانياً عن نفسه

مخطوفاً بصولة الحق سكران بالمشهد الأقدس .

وأيّاً كان تفسير الصوفيين فقد نزل الحلاج بهذا عن رتبة الكمال والتمكين .
ويصف ابن عربي ما يحدث في هذا المشهد النوراني بأن الصوفي يصل
إلى أعلى درجة في معراجة ، وهي اللحظة التي تنمحي فيها الصفات المتقابلة
وتنمحي الجهات مع بقاء عينه « أى ذاته » في مقام لا مقام أو مقام الجمع
بين الصدين أو المقام المحمدي أو الموقف « كما يسميه النّفري » ، لأنّ عنده
تنتهى الهجرة ويحدث التوقف « أو الإطلاق حيث تختفي الحدود والرسوم
والمعالم . ويقول بأسلوبه الرامز الغامض .. فتح مكة هو الوصول ولا هجرة
بعد الفتح فإنه ما ثم إلى أين ؟ ! » باعتبار مكة رمزاً لبيت الرب ورمز مركز
الطواف ومركز الدائرة والنقطة ، وهي مرتبة لا يوصل إليها إلا بتام التخلق
بالأسماء وبلوغ كون الحق تعالى سمعك وبصرك . فترى بالله وتسمع بالله وبذلك
تكون متصلاً بالسر الإلهي الساري في الوجود . والإنسان في هذا المقام يصبح
وجهاً كله « أى ذاتاً مجردة عن الجسمانية » .

ويفسر اختفاء المعالم والرسوم والجسمانية بأن كل هذه أمور طارئة
حادثّة ، وفي حضرة المطلق يختفي كل ما هو حادث ويذهب الحق تعالى
أحكام العين (أى لبسة الحياة الدنيوية التي يلبسها المريد) ، ويخلع عليه
حكمه وصفته مصداقاً للحديث القدسي :

« ما زال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي
يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها » .

ومعنى ذلك أنه يخلع عليه حكمه وصفته الإلهية ومن هنا يحدث الالتباس
للصوفي فيصرخ أنا الله .. لأنه لا يكتشف الاختلاف بين الحكم والعين ..
وما أذهب الله عنه إلا حكمه .. أما عينه « ذاته » فما زالت باقية تلزمها

رتبتها « الفقر المطلق والعجز والعبودية الكاملة » .. فلا جمع في العينين ..
وما زال العبد عبداً وما زال الرب رباً والأمر باق على ما هو عليه مهما ارتفع
الصوفي في معراجهِ .. فهو ما زال العبد الفقير المحتاج وما تغير عليه إلا
الحكم فخلع الله عليه أنواره .

ولكن نشوة الحال ونقص التمكين تحجب هذه الحقيقة فيخيل إليه أن
الحكم له والعين الإلهية له فيصرخ .. أنا الله .. ولهذا ينصح ابن عربي المريد قائلاً :
فكنه وصفاً ولا تكنه ذاتاً فعين المحال بادية

ويعبر عن هذا الخلط بين ثنائية (العبد والرب) وبين الأحدية
الإلهية مشبهاً الأمر بالخمير في قدح الزجاج .

فكأننا سيان في أعياننا كصفا الزجاج في صفا الصبء
قالعلم يشهد مُخْلِصِينَ تَأَلَّفَا والعين تعطى واحدا للرائي
فهو من فرط صفاء الزجاج وصفاء الخمير في التباس « فكأنما خمير
ولا قدح .. وكأنما قدح ولا خمير .. »

وهنا لغز المثوية والوحدانية .
ولغز آخر هو ماهية النور المشاهد .

هل ما يراه المشاهد هو « اسم » الله « ومن أسماء الله أنه (النور) » .
« اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » (سورة النور . ٣٥)
أم أنه يرى الاسم « الظاهر » ومن أسمائه أنه الظاهر والباطن . . والباطن
محبوب بالضرورة فلا يتاح للرؤية إلا الاسم الظاهر .
أم أنه يرى « أنوار مجلى الذات الإلهية أو سبحات النور التي حول
الوجه الإلهي » .

أم أن الصوفي يرى روحه هو ويشاهد مرتبته . . أليست روحه نفحة من

روح الله فهي نور من نوره وحينما يشف الجسد تتألق الروح .
فمن أنا إن أبحث ببعض علمي سوى نور العليّ بغير فخر
أم أنه يرى صورة مثال للأنوار الإلهية منعكسة في مرآة ذاته كما يرى
شمساً في بئر صافية . . وما يحدث أن نفسه وقد تطهرت وصفت بالتصفية
قد أصبحت كالمرآة تنطبع فيها أنوار الملكوت .
وجميع هذه الاحتمالات واردة في أشعار ومواجيد أبي العزائم وفي روايته
لمشاهداته .

ويمكن أن نفهم على أنها منازل ومراق في العروج فمرة يُكشف له عن
أنوار روحه ومرة يُطالع بالحضرة الأسماوية ومرة يرى أنوار مجلى الذات .
والتجليات الغيبية لا تتكرر كما يقول ابن عربي والله لا يكرر نفسه
في مشاهدته فتراؤه لا نهائي وكنوز غيبه لا تنفذ .

يقول أبو العزائم في هذه المشاهدات .
قد تراءى الجميل للروح حتى صارت الروح صورة المتجلى
أى أنه شاهد صورة مثال كما تراءى الشمس في بئر .
ومرة أخرى يقول :

حجبتني أنواره عن وجودي في شهودي فكان عين حياتي
ونفهم من كلمة « فكان عين حياتي » أنه شاهد الله بالله فكان الله بصره
وعين حياته التي شاهده بها .

ومرة ثالثة أجليت له أنوار روحه :

ظهوراً به تجلى لروحي حقيقتي فأعرف نفسي في اتضاح النور
وأعلم قدرى في العوالم كلها أنا المظهر الرموز للديهور
والديهور هو حضرة الاسم الإلهي « الباقي » .

وكلما ارتفع المرتقى كلما أصيبت النفس بالبهت لما ترى واستغلقت عليها
الألفاظ فلم تعرف كيف تعبر وأبهم عليها الحال .

يقول عن هذا المنزل :

قربها البعد ووصلى فصلها عجزى الإدراك والكشف ذهول
وهو كلام متناقض بلا معنى يعنى الحيرة التامة والبهت والإبهام .

وفى مثل هذا المعنى يقول ابن الفارض :

فوصلى قطعى واقتربى تباعدى وودى صدى وانتهائى بداءتى
وهى حالة تقترب من فقد العقل التام

وفى مثل هذه المنازل يحدث عند البعض حال « الاصطلام » وهو
فقدان السيطرة على الجسم فيصرخ ويصيح ويتطوح ويرقص ويقفز فى الهواء .
والحقيقة أنه لا وصل ولا اتصال ولا اتحاد فى الصوفية إنما هى حالة
السكر وخطفة العقل بالمشهد هى التى تؤدى بالصوفى إلى التفوه بهذه الألفاظ
المحظورة .. وحفظ رتبة العبودية يقتضى الفصل الدائم فلا وسيلة لعبور
البرزخ بين العبودية والربوبية ولكنها الجذبة والاصطلام الذى تكلمنا عنه ..
ويقول فى ذلك أبو العزائم :

فوصلى حفظ مرتبتى وقدرى ووصلى جذبتى تمكين حالى

وينصح المريد بالمحافظة على البرزخ الفاصل بينه وبين الربوبية حتى
لا يشطح ولا يدعى ما ليس له .

واحفظ البرزخ فى القرب إذا لاح غيب الغيب من غير اكتساب

وفى البحر العميق بين الفرق والجمع (البعد والقرب) يهلك الكثيرون
إذا لم يستقيموا على صراط الشريعة وإذا لم يلتزموا التجرد التام .. يقول :

أَمَحْ عَنِ شَغْلِي بِنَفْسِي وَغَيْرِي أَفَرَّدَنِي لِحَضْرَةِ الدِّيْهَوْرِ
 وَاعْبَرْنِي فِي يَمِ فَرْقِي وَجَمْعِي مُسْتَقْبِئاً عَلَى صِرَاطِ النُّوْرِ
 رَتَبَتِي الْعِجْزَ أَنْتَ رَبِّ قَدِيرٌ فَافْتَحِ الْكَتْرَ كَتَرَ رَبِّ غَفُورِ
 وَيَقُولُ عَنِ التَّجَرُّدِ وَالتَّصْفِيَةِ :
 تَجَرَّدْتُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ عَنَاصِرِي فَأَشْهَدُنِي الْغَيْبَ الْمَصُونِ بِلَا رَبِّ
 وَيَقُولُ :

من العنصر الداني (الدنيء) تجردت للسير
 وللوصل قد جُردت مني ومن غيري

ويقول عن شرط الشهود :
 تشهد النور عين نفس تزكت من دواعي الحظوظ والشهوات
 ولاحظ لمن ظلت أرواحهم أسيرة في قيود الشهوات :
 لا ينجلي للحس نور صفائه في الكون للأرواح في التقييد
 ولا بد من الفرار من عالم التشيت والتعدد :
 إلى الله فرت كل روح تطهرت من الملك والملكوت والتشيت
 وهذا يتطلب أهل العزائم وأولى الهمم :
 أهل العزائم بالأرواح قد ساروا لم تلهم زينة الدنيا وآثار
 غابوا بمولاهم عنهم فقر بهم لا جنة الخلد تشغلهم ولا النار
 غابوا عن الكون والأشواق تجذبهم لأنهم في سما الملكوت أنوار
 قد وجهوا الوجه لله العلي فلم يقهرهمو حالهم فيه وأوطار
 فإذا تجلت الأنوار الربانية اختفت الرسوم وأفنت الحضرة الإلهية كل
 شيء وهذه علامة الشهود .
 اختفاء الشئون ثم اختفائي عن وجود الأشكال والأضداد

اختفاء الكون والأين واختفاء معالم الجسد واختفاء الرسوم وظهور النور
بلا وصف ولا كيف ولا تحديد ولا تعيين .

إذا ما اختفى رسمى فنيت ولاح لى من الغيب ساطعة تُسَرُّ بالغم
غمام يرينى نور أسمائه التى تظللنى فى الصفو من عالم القدم

ثم تختفى أنوار الحضرة الأسمائية حينما يرتفع المشاهد إلى مقام الجمع
ويرى أنوار مجلى الذات وفى هذا المقام يفنى عن نفسه ويفنى عن فنائه ويصبح
المشهد توحيدياً صرفاً وهذا هو تفريد العبد لربه .. لا إله إلا الله ..

ثم يخفى الشهود يخفى مقامى عدت للبدء فى بحور النور
جزت سر الجحود بحر حدودى فى مقام التفريد سر العبور
ثم يأتى بعد الفناء البقاء فيفرد الرب عبده ويرد إليه إحساسه بذاته
وهى تلك الحالة التى يقول عنها أبو العزائم :

فكلى آذان وكلى ألسن وكلى عيون تشهد الوجه بالفضل

وهو تفريد الرب للعبد كما كان تفريد العبد للرب وتلك هى منزلة
المحبة بين العبد وربه .. تفردنى وأفردك .

فإذا عاد هذا المشهد إلى البطون فى الغيب عاد العبد إلى حالة التلوين
فى الكيف والأين والكون وتداول الشئون والأحوال وإلى عالم التشيت الدنيوى
 واحتجب عن حقائقه وعن ربه . وهى حالة « الفرق » أو البعد أو الغفلة
المعتادة التى نعيشها كلنا فى الدنيا

ويتكلم أبو العزائم كثيراً عن حالة المحو والفناء واختفاء الرسوم فى
مواجهه الشعرية ويعجب لما يحدث من محو الجهات ومحو الزمان والمكان :
أشرقت شمسه فأخفت ظلالى صرت نوراً بها لمجلى الذات

وفي مكان آخر :

أشرقت شمس ظاهر وظهور
هيبة دُكَّت لها طور سينا جهاراً
غاب حسي وغاب عقلي ونفسي
وفي مشهد آخر :

فلما رأيت الوجه غبت عن السوى
تجاوزت عرفان الفحول لأنتي
فأحدية التنزيه كعبة وجهتي
وعن الأسماء الإلهية يقول :

هم أسكروني من شراب صفاتهم
غاب الشهود وأشرقت شمس الخفا
لو قطرة مما شربت تدفقت
أنا طلسم لا يدرفني إلا أنا
كل الذي أنا فيه فضل محمد
وهو يقول دائماً إن المشهد التوحيدي يعود به دائماً إلى الأولية (حضرة
الجمع الأولية حينما كان نوراً يطوف حول ربه في القدس العلى قبل أن ينزل
إلى ظلام الأرحام) :

محا نوره ما تقتضيه عناصرى
وسرّها عني فشاهدت أولى
وفي مكان آخر :

أُعدت إلى أزل فلم أر غيره
وهو يتوسل إلى ربه :
أعدنى إلى بدئي لأفنى عن السوى
بجذبة حب منك يا سايع الفضل

ورؤية الأنوار الربانية يصفها العارفون بأنها شراب ساحر طهور .

إذا ذاقه أهل الصفا من دنائه فنوا عن جنان الخلد واللون والكون
وفروا إلى القدس العلى بعزائمهم فلم يلههم شأن عن المشهد العيني
عزائمهم من دونها العرش رفعة ومن دونها الولدان والحدور في عدن
وما أجمل ابن الفارض حينما يتحدث عن هذه الخمر القديمة :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
ويحكى أبو العزائم عن هذه الراح تدور مشنوية بين العبد والرب .
طهور الراح دارت مشنوية بلا لبس لأهل السابقة
سكرت بها بحان القرب لما محوا رسمى بآى الواحدة
فغبت بها وفي غيبى حضورى لأن الكشف آى معنوية
محا نور التجلى فى رسمى بسر الاجتلا فى الأولية
غشت أنواره سدره ذاتى فكنت ولا مكان ولا برية
ولا صبح يلوح ولا مساء ولا عرش يلوح لدى العطية
وعن حالة الاصطلام يقول :

لا تلمنا إذا صفونا فإننا عند ذكره قد خلعنا العذارا
نحن قوم بحبه قد شغفنا فمئنا الشهود والأسرار
ليس يدري أحوالنا غير فرد نال منا القبول والاختيار
سرنا غامض دعونى أغنى فلدى الأنس حالتى لا تجارى
لا تميل الأشباح إلا بسر قراها تغيرت أطوارا
وعن الأسماء الإلهية مرة أخرى :

سقونى وقد رفعوا البراقع عن حسن فزالت لديها بالصفاء نقطة الغين
طهوراً من الإحسان عند شرابه تلوح لى المجلى يشير إلى العين

فغيبني هذا الشراب لأنني
ولم يبق إلا الوجه جلّ مُنزّها
أحاط بآفاقى بأنوار وصفه
ويقول عن المحو:

محاني بعد توحيدى وقربى
وصار هو المشاهد بعد محوى
فالعين التى أرى بها الله هى من الله ، فلا يمكن أن يرى الله إلا الله .

وكلمة القرب فى الصوفية لا تعنى المكان أو الارتفاع فى المكان .

وقربى بلا كون ووصلى بلا أين

وفى أسلوب رامز جميل يصف ذلك المحو والإفناء .

تجلى لك ناسوتى وأبقى
فلا أنا ظاهر للروح أجلى
أراني فيه خاف لا أراني
قُتلت بحبه فخفيت عني
فأشاهده وأخفى فى اتصالى
أعدت لمبدئى وبه أضاءت

جمالا من ضيا روحى وأصلى
ولا خاف وعلمى عين جهلى
وأشهد وجهه للروح مجلى
فكان ظهوره سترى وقتلى
ويشهدنى ويبطن حال فصلى
شموس الغيب لى والوجه حولى

ويصف غيابه عن نفسه ومشاهدته للعرش والكرسى :

لدى مشهد التوحيد أفنى عن النفس
أنا عندها غيب عن النفس وإلا أنا
لأن التجلى أصعق النفس عندما
أعدت وحالى إننى العبد غائباً

وأخفى عن الأكوان فى حظوة الأنس
وجودى بنور الاجتلا مشرق الشمس
يدار ظهور الراح بالعين لا الكأس
حضوراً أرى عرش الإحاطة والكرسى

وهو يقول إن هذا كشف لا تراه العقول ولا تفهمه وإنما هو من حظ

الأرواح عند القبول فهو من مقامات أهل الأرواح وليس من مقامات أهل الأفكار .

لا تراه العقول عز مقاماً بل تراه الأرواح حال القبول
لم ير العقل غير آى تجلت في المباني والعقل عين عقال
وهو حائر في أمر المحو والاختفاء وفناء الرسوم والمعالم الجسدية ويتساءل
عن سر الأمر ويحاول تفسيره .

صار رسمى كالروح أو دُكَّ طورى
هل « يتروحن » الجسد ويصير مجانساً للروح في لطاقتها بفعل التصفية
والجذب الإلهى وهو يورد هذا المعنى في أحد أبياته الشعرية :
أفارق ما يوجهه رسمى مجانساً لما تقتضيه الروح من ساطع الغيب
هل هذه المجانسة هى التى تؤدى إلى « الروحنة » وإلى لطف الجسد
واختفائه أو بالتعبير العصرى ترتفع ذبذبات ذراته فيختفى ويصبح شأنه شأن
الأشعة فوق البنفسجية التى لا ترى لارتفاع ذبذبتها .
أم أن الأمر مَحَقَّ وسحق للمعالم المادية كما دك الجبل وخر موسى صعقاً
بفعل صولة التجلى الإلهى .

صار رسمى كالروح أو دُكَّ طورى ؟ ! !
أم أن الأمر كاختفاء الكواكب فى النهار بنور الشمس بسبب غلبة
ضوئها على حين تظل الكواكب موجودة برغم اختفائها الظاهرى .
تلوح المعانى يختفى كل كائن

وشمس الضحا تختفى الكواكب بالظل
ثم إن اختفاء المثنوية فى المشهد التوحيدي ، هل هو اختفاء جسم وروح ؟
(هل هو فناء حكم وعين) ، وابن عربى يجب على هذا السؤال كما سبق

أن أشرنا بأن فناء العين مستحيل وأن جمع العينين ، (عين الرب وعين العبد) في عين واحدة وهو الاتحاد ، هو أيضاً مستحيل ، وإنما يذهب الله عن العين حكمها ويخلع عليها حكمه فترى يبصره وتسمع بسمعه .. وكل ما يحدث أن المشاهد يغيب عن نفسه بصولة الحضرة الإلهية فيصبح الحضور لله الواحد القهار لا إله إلا هو ، وهذا هو تفريد العبد لربه ثم يفضل الرب فيرد لعبده إحساسه بذاته ويثبته ويفرده كما أفرده .

إنما ذروة التوحيد الإسلامى عندنا هو تلك الصيحة التى يطلقها أبو العزائم حال تجرده :

أُخْلُو؟!! ومن . . وكل الكون مظهره !!؟

يجلى لنا نوره فى ستر تعديد

أى مم أتجرد وكل المظاهر هى مراتب التعدد التى ظهرت من الواحد (يجلى لنا نوره فى ستر تعديد) فكل شئ من الله وإلى الله يعود .

وهل أنا إن أبحث ببعض علمى سوى نور العلى بغير فخر وبين الثنائية الأصلية والقديمة فى الوجود وبين الوجدانية الشاملة والمهيمنة (فالله يحوى فى علمه كل القدماء وكل الأعيان الأزلية الثابتة ويهيمن عليها بحكمه وإيجاده وإعدامه) .

بين هذه الثنائية والوجدانية يغرق العقل الذى ليس لديه مصباح الشريعة ولا مقودها الهادى ، وهذا ما قصده الصوفى حينما صرخ هاتفا : غرقنا فى أحوال التوحيد

وفى هذا البحر غرق الفكر الهندى فى وحدة الوجود الوثنية .

وكانت حالة الفناء فى الشهود هى محل الخلاف والاختلاف ، وفى محاولة الهنود تفسير هذه الحالة خرجوا بفكرة الحلول والاتحاد والزفانا

والبارانرفانا (البقاء بعد الفناء) وكلها تنظيرات خاطئة لهذه الحالة الصوفية العالية .. والسبب أنهم اعتمدوا على العقل وحكموا العقل في أمر غير عقلائي بالمرّة ولم يكن لديهم شريعة نبي أو لعلهم حرفوا تعاليم أنبيائهم كما حدث في المسيحية الحلولية أو الزرداشتية المجوسية التي انحرفت بتوحيد زرادشت الصافي إلى عبادة النار الحسية ولم يخل الإسلام من صوفيين أخذتهم حالة السكر والجذب فشطحوا وخرجوا على الشريعة ، فهذا الحلاج يقول :

— أنا الله .. وما في الجبة إلا الله .. حتى ابن عربي برغم تحذيره من هذا السكر والشطح إذا به يصرخ هو الآخر في لحظة جذب هائفاً :

مذ تأملت رجعت مظهراً وكذا كنت في فاعتصموا
ليس في الجبة شيء غير ما قاله الحلاج يوماً فانعموا
ويصرخ في مكان آخر :

إذا عرفت الحق فما عرفت سواك

ويصرخ في مكان ثالث في شطحة سكرى متناقضة :

وليس إلا الحق لا غيره فعينه الظاهر نعت العبيد
ولا تقل بأنه عيهم بل كما قلته لا تزيد
والفتوحات المكية مليئة بمثل هذه الشطحات ولكن ابن عربي يعود في صحوته وفي مجمل مذهبه وتفكيره فينكرها تماماً ويحذر منها ويستعيذ بالله من أن يختم له بالخذلان .

وهذا ابن الفارض يقول في شطحة بعيدة يخلط فيها بين الرب والعبد ويكاد يمحو العبدية تماماً ، يقول على لسان ربه :

فلا حيّ إلا عن حياتي حياته وطوع مرادى كل نفس مريدة
ولا قائل إلا بلفظي محدث ولا ناظر إلا بناظر مقلتي

ولا مُنصت إلا بسمعى سامع ولا باطش إلا بأزلى وشدتى
ولا ناطق غيرى ولا ناظر ولا سمع سوائى من جميع الخليقة
وفى عالم التركيب فى كل صورة ظهرت بمعنى عنه بالحسن زينتى
وهى مغالاة فى إسناد الأفعال كلياً لله بشكل يننى المحاسبة ويهدم
المسئولية .. وسوف نرى أن ابن الفارض لم يقصد بذلك كفرا بل هى حالة
حُب وعشق استولت عليه فهو مثل الحبيب الذى يقول فى ساعة هيمان
من فرط وجده :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
وتقرأ هذه المغالاة فى إسناد الأفعال مرة أخرى فى هذه الأبيات
لابن الفارض :

وفى الزمن الفرد اعتبر تلق كل ما بدا لك لا فى مدة مستطيلة
وكل الذى شاهدته فعل واحد بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما أزال الستر لم تر غيره ولم يبق بالأشكال أشكال ريبة
وحققت عند الكشف أن بنوره اهتديت إلى أفعاله بالدجنة
وهو من فرط حبه يعتذر لكل الناس عن ضلالم قائل على لسان ربه :
وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة
فما قصدوا غيرى وإن كان قصدهم سوى وإن لم يُظهروا عقد نية
رأوا ضوء نورى مرة فتوهمو ه ناراً فضلوا فى الهدى بالأشعة
وتلك هى أحوال التوحيد التى غرق فيها الفحول أمثال ابن الفارض
والحلاج فما بال صغار المتصوفة .

والعلم بالله علم ضنين مرتقاه صعب .. والعالم فى هذا العلم هو من أدرك
أنه جاهل .. وعين معرفة الذات هو جهلها .. يقول فى ذلك الصوفية :

العجز عن درك الإدراك إدراك

أى إذا عجزت وأصابك البهت التام وأدركت أنك جاهل فقد علمت ..
أما الآخرون من مدعى العلم وأهل التفاسيح والتعالم فتطبق عليهم كلمة القرآن
« كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون » وهم المتعصبون الذين أغلقوا عقولهم وتصوروا
أن ما عندهم من العلم هو كل العلم وفي آية أخرى يقول القرآن عن هؤلاء :
« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ »

(سورة غافر ٨٣)

وهؤلاء هم الذين أضلهم الله على علم فكفروا وكانوا مستبصرين .
وإذا كان القارئ قد خرج من هذه المقالات بعظمة المعارف الإلهية
وبعد أغوارها وقلة نصيبه منها فقد خرج بشيء فإن الإحساس بالجهل هو
الشرع المنجى فى هذا البحر الذى غرق فيه الفحول .. والإحساس بالجهل
يؤدى بالإنسان إلى التواضع والاحتشام وحسن الاستماع وعدم اللجاجة فى
الجدل ، وعدم التعصب وعدم التورط فى الرأى ومراقبة نفسه وتَحَسُّب
كلماته وكلها فضائل هى نور للسائرين فى هذا الدرب العسير .





الحبّ الإلهي



الحب هو الصنم المعبود في هذا الزمان .. هو اللات والعزى وهبل في جاهلية هذا العصر تذبح له القرابين من دم الشباب ووقته ووعيه وتحرق بخوراً في هذا المحراب الضبابي .. وهو تجارة أصحاب الجيوب ومضيعة أصحاب القلوب .. وهو من أخطر المفاهيم التي زيفها العصر فعرضته وسائل الإعلام مشوها . مريضاً في الأغنية والرواية والسينما والمسرح والتلفزيون لا يكاد يخرج عن مرادفات بين أنثى وذكر وتأوهات تحت ملاءة ومحاولات رجل لاصطياد زوجة رجل آخر ، لا يشغل بال المؤلف طول الوقت إلا كيف يصل إلى الفراش ، ولا يشغل بال المخرج إلا كيف يعرى جسم بطلاته .. وفي أوروبا تجاوزوا ذلك إلى عرض الأعضاء التناسلية عارية في أفلامهم ثم عادوا فتجاوزوا ذلك إلى عرض الفعل الجنسي عياناً .. ثم عادوا فتجاوزوا العلاقة الطبيعية إلى العلاقة الشاذة بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرأة .. ثم عادوا فتجاوزوا كل هذا إلى بشاعات حسية مثل علاقة امرأة بكلب أو علاقة رجل بخنزير .. ووراء كل هذا أموال تنفق لإفساد العالم وأصابع سياسية مريبة تعمل .. وكل هذا يجري باسم الحب والفن والحرية والتجديد .. ونحن من ورائهم نقلد في غباء أيضاً وباسم الحب والفن والحرية والتجديد . وحقيقة الأمر أن ما يجري هو ظاهرة تخلف ، تخلف عندنا .. وتخلف

عندهم وارتداد للإنسانية عامة إلى حيوانية بدائية وجاهلية مادية حسية أخط من جاهلية قريش لأنها هذه المرة جاهلية مسلحة بوسائل إعلام وأدوات انتشار إلكترونية علمية تنشر الأوبئة الخلقية بأسرع من سرعة الضوء .

وما أحوجتنا وأحوج العالم كله إلى الاستماع إلى ذلك الصوت الهامس العميق الحميم .. صوت الصوفيين الأطهار حينما يصفون لنا حقيقة الحب ويحملوننا على أجنحتهم لتنفهم أعماق الحب وماهيته ومنبعه .

يقول ابن عربي إن الحب الجنسي حجاب على ما وراءه من حقائق وإنه لا يروى غليل صاحبه ولا ينبي بما يقوم في النفس من تعلقها بالمحبوب ، وهو كشرب ماء البحر المالح .. كلما ازداد الشارب شرباً ازداد عطشاً .. وهو يسميه بالحب العنصري لأنه يتوجه إلى صورة واحدة أو عنصر واحد وبالتصاق المحب بهذه الصورة ينحجب عما وراءها من عناصر الكون وحقائقه .

وأعلى منه الحب الطبيعي الذي يتوجه إلى جميع الصور الجميلة من نساء و فراشات وزهور .

وأعلى منه الحب الروحاني الذي يحب الموضوع لنفسه ولجوهره لا لأنه يستمد منه لذة فهو يحب ولو كان الطرف الآخر يهجر أو لا يعطى فهو لا يفكر في لقاء أو مكاملة أو مصاحبة ، والتعلق عنده متجرد من النفع والمادة وإنما هو أشبه بالاستغراق والتأمل .

وأعلى منه الحب الإلهي الذي يتوجه الشوق فيه إلى أصل كل شيء وصورة جميع الصور : الله تبارك وتعالى .

وقد اتجه العالم كله إلى الله بالحب منذ لحظة « كن » حينما نظر الله إلى أعيان المخلوقات في العدم وأمرها بالوجود فتطلعت إليه وهامت به حباً .

ولولا هذا الحب الخفى ما كانت حركة العالم وسيره ، ولما صح فى الدنيا طلب أبداً .. فالكل يطلب الكمال ويسير نحو الكمال ولا كمال إلا وجهه ؛ فهو سبحانه المطلوب بكل هم وإن تخفى تحت أسماء وصور عديدة ، وهو سبحانه جمال العالم وزينته .. وهو الظاهر فى كل محبوب لعين كل محب وما فى الوجود إلا محب ؛ فالعالم كله محب ومحبوب وكل ذلك راجع إليه وإلى تنزل كمالاته وأوصافه فى المظاهر : حب الوطن وحب الأم وحب الفن وحب الجمال وحب الحقيقة .. كل هذه أقنعة وأسماء لحب الله ، فالطفل يحب فى أمه أوصاف المعطى والوهاب والرزاق والحافظ والمقيت .. والفنان المبدع يحب ما تجسده صنعته من أسماء الخالق الباري المصور .. والمفكر والفيلسوف يحب الأسماء .. الحق والعليم واللطيف والخير والمحيط . وما نحب فى النهاية كامن فينا وبين أضلعنا وأقرب إلينا من حبل الوريد دون أن ندري .

ومن عجب أنى أحن إليهم وأسأل عنهم من أرى وهمومى
وترصد هم عيني وهم فى سوادها وشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
وعذاب الشوق هو عقاب من أحب غير هذه العين الإلهية .
وإحباط الجنس وملله وضجره هو أيضاً إشارة إلى أنه ... يا عبدى ليس
هذا محبوبك لقد أخطأت الطريق .. عد إلينا .

ومحب الله لا يخاف فراقه .. فليس عنده هذه المشاعر السوقية المبتذلة ..
(اللوعة والظنى والصباية والهجر) . فهو يشعر أن محبوبه أقرب إليه من
حبل الوريد ، أقرب إليه من نفسه وهو يراه ظاهراً له فى كل شئ .. هو
فى سواد عينيه وفى بسمه وليده وفى رقصة عصفور الصباح .. إنما الشوق هنا
من نوع آخر .. شوق يزداد مع ازدياد المشاهدة وتنوع الجمال الدائم ، ولهذا

فهو حب متجدد يخلو من الملل والضجر والتكرار .
ويرمز المحب بالكأس إلى عين ما يرى من مظاهر وبالشراب إلى الظاهر
فيها من جمالات الله .

صارت الأكوان للخمر قداح
وبالشرب إلى ما يحدث من النشوة بالرؤية .
إلى أن تصل لذة الرؤية به إلى الفناء حينما ترفع عنه الحجب ويرى
النور الرباني مجابهة .

حقيقتي هيمت بها وما رآها بصرى
ولو رآها لغدا قتيل ذاك الحور
وفي الحقيقة ما أحب الله إلا نفسه .. فقد كان ولا شيء معه وما كان
علمه بالعالم إلا علمه بنفسه (فلا شيء خارج نفسه حتى أعيان المخلوقات
القديمة في العدم هي الأخرى في علمه) فحينما تجلى ذلك العلم للعالم كان
لا بد أن يكون على صورته .. فأحبه .. وما أحب إلا ذاته .. وهو أمر
لا يدرك إلا في مقام الفناء .

ولذلك كان أكبر حجاب في الحب هو حجاب النفس حينما يتصرف
العاشق كأنه إله فيحب نفسه ويحب رأيه ويحب فكره ويحب هواه ويظل
هذا الحجاب الغليظ مسدلاً على عينيه حتى يتمزق ويتهتك لحظة الشهود
حينما يدرك أن ذاته ما هي إلا مظهر لذات الله ، وأن الله يعبر عن ذاته في
هذه الذاتية العميقة للمحب . . "وأن هذه الذاتية هي مظهر لكشف اللثام
عن الحق .

وذاق مظهر لكشف اللثام
فالواحد منا يقول أنا .. وما أخذ هذه الأنا إلا استعارة من ربه .. فكل

شئ مردود إلى الله في النهاية .. والله هو الوحيد الذى يحق له أن يقول أنا على سبيل الأصالة فما أخذ هذه الأنا عن أحد .. وإنما هي له على سبيل الوجوب .. وهي لنا على سبيل السلفة والإعارة .

وفي لحظة الرؤية الإلهية تتمزق الحجب وتفتنى المعالم وتختفى الرسوم ولا يعود العارف يرى لنفسه جسداً .. إنما هو نور زج به في نور .. وهنا يشطح به العشق والجنون ويصرخ مجذوباً

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
أنا محببى أنا محبوبى أنا فتاى أنا فتاى

لقد ألقت به الجذبة إلى التباس آخر فتصور ذاته ذات الله .. والأمر أبعد ما يكون عن ذلك فما ذاته إلا مظهر لكشف اللثام .. ذاته كالإناء وقد ظهر الإناء بلون ما فيه من ماء فظن في لوثه الجذب أنه هو .. وما هو بهو . . وإنما هو مظهر لتجلية مثل أنبوبة النيون بما أظهرت من أنوار داخلها . . فهي شئ والأنوار شئ آخر والله غير جميع ما يظهر وغير جميع ما نرى وإن ظهر فيها جميعاً ..

الله في كل شئ

وهو يبدو كأنه هذا .. وكأنه ذاك

كأنه هو .. ولا هو

هو لا هو

فما نرى إلا مجرد ضرب أمثلة لجماله وأوصافه في المظاهر المتعددة .. ولكنه هو سبحانه في الغيب المطلق ، وحينما يصحو العارف على هذه الحقيقة ويصل إلى هذا المقام (وهو مقام الخلعة والأرواح المهيمة ، وهو مقام الحب الذى هو أهل له عند رابعة العدوية) فإنه يصبح هائماً مهيماً في كل ما يرى ..

فهو يرى الله يتخلل كل شيء فيتوجه إلى الله بذاته كلها فتتخلل أسماء الله ذاته كلها وتظهر فيها (ومقام الخلقة من التخلل) .

والقلب هو كأس هذا الحب لأنه ليس من عالم التقييد كالعقل والحس (لم تسعني أرضي ولا سماواتي ووسعني قلب عبدك المؤمن) .

ويصف أبو العزائم هذا القلب بأنه

محاط محيط في مقام الهوية

رامزاً بذلك لإطلاقه وسعته (محيط) ولكن برغم ذلك محاط بالهوية الإلهية فهو محاط محيط .

فالقلب هو الوحيد الذي يسع الرب لأنه روحاني من عالم الروح والصفاء وليس من عالم المادة (كصفاء الماء حينما يتسع لصورة القمر) .

وهيام المحب على وجهه أولى في الحب الإلهي منه في الحب البشري لأن الله غير مختص بمكان ، وهذا الهيمان في الحب الإلهي علامة بهجة أما إذا ظهر في الحب البشري فهو علامة يأس وقلق من هجر لا علاج له .. أما في الحب الإلهي فهو علامة غنى واتساع وتحصيل نشوة .

وحب الرجل للمرأة هو حب الرجل لنفسه ، فعنه خرجت ومن هنا كاتب السكينة إلى العودة إلى الوطن ، وكانت الشهوة نفسها تعبيراً رامزاً للرجوع إلى الأصل بسد الفراغ ورتق الثقب لاستحالة الخلاء .

والمرأة والرجل لوح وقلم .. فعل وانفعال .

ومن أحب النساء حب شهوة لا حباً إلهياً فقد غابت عنه روح المسألة (لأنه أحب الرمز وغاب عنه الرموز) .

ولأن الشهوة حجاب فقد شرع الله الزواج لتسكينها لترتفع حجبها ويبدو

ما وراءها

وإذا قلت هويت زينبا أو ثريا أو سليمى فاحكموا
أنه رمز بديع حسن تحته ثوب رفيع مُعلم
وأنا الثوب على لابسـه والذي يلبسه لا يعلم
ولا يستغرق حب الرجل بالكلية إلا المرأة لأنها أكمل مظهر ولما بينهما من
تناسب فهي مخلوقة مثله على الصورة ، ومن ثم كان يقابلها بكل
أجزائه الجسدية المناسبة .. ولهذا كانت فتنة حتى يكتشف فيها الصوفى ..
الرمز .. ومنصة التجلى .. وأنها قناع وحجاب على ما وراءها وأنها مجرد نافذة
إلى ما وراءها ثم يهتدى إلى ما وراءها .

وهل يمكن أن يكون الجنس هو سمعك وبصرك هيهات .. إنما
هو العمى والقيـد والحدود والوقوع فى شرك المظهر وفى حبال المادة والطين
والماء المهين .. وإنما لا تكون الأشواق السامية إلا فى كسر هذا الطوق
والخروج منه لمعانقة الحق المتعالى على كل الصور المختفى وراء جميع
الأقنعة .. وهنا يلتقى القلب بكل مناسباته بالمطلق بكل اتساعه وتكون
النشوة الكبرى .. فالحب الإلهى يتجه إلى الكل وإلى ما وراء الكل ، والحب
الجنسى يتجه إلى الجزء ثم يحبس نفسه فى جزء الجزء ثم يسجن نفسه فى
ثقب فهو ينتهى إلى الضيق ومنتهى الضيق .. أما الحب الإلهى فهو ينطلق
إلى كل الصور ثم يكسر إطار كل الصور منطلقاً فى فرحة وتحرر ليعانق
ما وراءها .

والعناق هنا عناق حقائق فهو حرية وانطلاق وسعة .. وشتان بين هذا
العناق وعناق الأجساد التى تهوى بالأرواح إلى الضيق والاختناق والأغلال .
والحب فى البداية منازل بين العبد والرمز (بين رجل وامرأة وبين ذكر

وأثنى بين عين ومظهر) ثم هو في النهاية عند الاستنارة منازل بين العبد والرب
(بعد أن يعبر الرمز إلى المرموز) .

وأجمل ما يقول ابن عربي إن المحب مرحوم للوازم المحبة ورسومها
(وهذا هو الأصل في صلة الرحم فقد جعل الله الحب طريقاً إلى صلة الرحم) .
ونصل إلى ابن الفارض إمام العشق الإلهي فتراه يصوغ أحلى الأشعار
في ذلك الحب .. يقول وكلامه هنا عن الذات الإلهية :

جری حبها مجرى دمی فی مفاصلی فأصبح لی من کل شغل بها شغل
فإن حدثوا عنها فکلی مسامع وکلی إن حدثتهم ألسن تتلو
وإن ذُکرت يوماً فخرّوا لذكرها سجوداً وإن لاحت إلى وجهها صلوا
ثم یجیب من یسأله عن وصفها :

یقولون لی صفها فأنّت بوصفها خیر .. أجل عندی بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم
تقدّم کل الکائنات حدیثها قديماً ولا شکل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحکمة بها احتجبت عن کل من لا له فهم
ویقول عن ذکر الله : (وهو الشراب الطهور عند الصوفية) :

شربنا علی ذکر الحبيب مدامة سکرنا بها من قبل أن یُخلق الکرم
ثم یسترسل :

وقالوا شربت الإثم کلا وإنما شربت التي فی ترکها عندی الإثم
هنيئاً لأهل الدير کم سکروا بها وما شربوا منها ولكنهم همّوا
وعندی منها نشوة قبل نشأتی معی أبداً تبقى وإن بلی العظم
ثم یقول عن عظمة هذا الحب ونصيب أهله :

وفی سكرة منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طائعاً ولک الحكم

ثم يقول عن موته حباً :

ونخذ بقية ما أبقيت من رمق لا خير في الحب إن أبقى على المهج
من مات فيه غراماً عاش مرتقياً ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج
ثم يقول عن بذل روحه في هذا الحب :

مالي سوى روحي وباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتني يا خيبة المسعى إذا لم تسعف
ولكن هيات :

إن قلت خذ الروح يقل لي عجباً الروح لنا فهات من عندك شيء
وما عنده شيء وما يملك من نفسه إلا عين العدم .
ثم ما هو أقصى ما ينال في حب هذه الذات الإلهية المثلثة يغيب
الغيب .

فرشت لها خدى وطاء على الثرى فقالت لك البشرى بلثم لثامى
إن منتهى النوال لثم اللثام .. فإن اللثام لا يرفع لأحد أبداً .
وحظه الفناء لحظة اللقاء .

صارت جبالى دكاً من هيبة المتجلى
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كلى
فالموت فيه حياتى وفي حياتى قتلى
ثم هو عند الجمع على الذات يُجنّ ويفقد الإحساس بالزمان والمكان
والاتجاه .

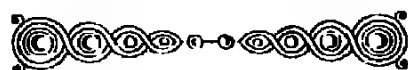
فوصلى قطعى واقترابى تباعدى وودى صدى وانتهائى بداءتى
وعن التوحيد يقول :
تعانقت الأطراف عندى وانطوى بساط السوى عدلاً بحكم السوية

وعاد وجودى فى فنا ثنوية ال وجود شهودا فى بقا أحدية
وفى هذا التوحيد يقول مرة أخرى رامزاً :

وقد وقع التفريق والكل واحد فأرواحنا خمر وأشباحنا كرم
ولا قبلها قبل ولا بعد بعدها وقبلية الأبعاد فهى لها حتم
ثم ما أجمل الوجه الكريم الذى ذاب فيه عشقاً :

فأدر لحاظك فى محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه. مصورا
لو أن كل الحسن يكمل صورة ورآه كان مهللاً ومكبراً
فهو الحسن من وراء كل حسن

رحم الله ابن الفارض الذى عرف كيف يحب ومن يحب وجعلنا الله
من أهل هذا الحب العظيم .





المصير



يقول ابن عربى إن الإنسان مسافر مع الأنفاس منذ خلقه الله دنيا وآخره لا يصح أن يقيم أبداً ولو أقام زائداً على نفس واحد لتعطل فعل الإله فى حقه ، فالحق سبحانه وتعالى فى كل نفس فى الخلق فى نبأ .. وهو أثره فى كل عين موجودة بكيفية خاصة فمن فاته مراعاة أنفاسه فى الدنيا والآخرة ، فقد فاته خير كثير .

ولا يزال الناس ينتقلون فى الآخرة من حال إلى حال كما كانوا فى الدنيا بينا الأعيان (أى ذوات المخلوقات) ثابتة فإن الرب يحفظها .
والحق لا يعقل إلا فاعلاً (وهو معنى كلمة إله أى فاعل) ونخالقاً ومعطياً على الدوام . . وبحكم هذه الصفات نقول بدوام الانتقال والتجدد والخلق .
« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ »

(سورة الرحمن : ٢٩)

وهى شئون بعدد أجزاء العالم التى لا تنقسم وفى كل لحظة إلى أصغر كسر زمنى (فيما يحدث فى أجزاء الذرة وهى مُستَمِدَّة من الله كما أننا مُستَمِدُّون) ، وما فى الكون إلا سائل وطالب . . وما فى الكون إلا فقير .
والمحددات كلها فى خلق جديد والناس من ذلك فى لبس .. يقول
الله فى القرآن الكريم :

« أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » (سورة ق : ١٥)
أكان صعباً علينا أن نخلقكم هذا الخلق الأول وهل عيينا فيه حتى
تساءلون كيف نجدد خلقكم ؟
ومن هنا دهشة الصوفي الدائمة أمام الكون .

ولا ينقطع تكليف الإنسان حتى يجوز الصراط (إلى الجنة أو الجحيم في
الآخرة) وحيث تكون العبادة من الناس ذاتية ليست عن أمر ولا نهى يقتضيه
وجوب أو ندب أو حظر أو كراهه وإنما ساعتها تكون عبادة تلقائية نظراً
لأنكشاف الحقائق .

وعن الانتقال في المراتب في الآخرة نجد إشارات في القرآن إذ يقول عن
المؤمنون والمؤمنات وهم يسعون في الجنة أنوارهم بين أيديهم وبأيمانهم .
« رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » (سورة التحريم : ٨)

وهي إشارة صريحة تدل على أن العروج مستمر وأن هناك تنقلاً في
المراتب .. وأن السير دائم من النقص إلى الزيادة ومن الزائد إلى الأزيد .
ثم يتكرر في القرآن في أماكن متعددة أن الله يوم الجمع سوف يكشف
الحقائق لخلقه ويزيل اللبس ويفصل الأمور
« ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »
(سورة الأنعام : ١٦٤)

ومعنى ذلك أن التعلم مستمر وأن كشف الحجب مستمر .. فالدنيا طريق
والآخرة طريق .. والسير لا يتوقف .. والعلم في زيادة .. والتحصيل في زيادة .

والتصور الساذج للجنة على أنها ناس مستلقون على ظهورهم على
شواطئ الأنهار يفضون الأبقار ويأكلون الثمار هو تصور سطحي وقف

عند الحروف ولم يحاول النفاذ من الإشارات والألفاظ إلى ظلالها ومعانيها الغنية .

ولا يعنى هذا على الإطلاق أننا ننكر النعيم الحسى أو العذاب الحسى ..
فالنعيم الحسى حقيقة مؤكدة كما أن العذاب الحسى حقيقة مؤكدة ..
وإذا كان الله قال إن فى الآخرة ناراً ففيها نار .. ولكن نظراً لاختلاف النشأة
سوف يتحمل المجرمون تلك النار ويتكاملون فيها ويتلاعنون ويعيشون ..
وسوف نرى أن فى النار شجرة (هى شجرة الزقوم تخرج من أصل الجحيم
وأن فيها ماء حمياً) وهذا يدل على أن لهذه النار صفات غيبية غير ما نعرف
من صفات نيران الأرض .. وأن فى الأمر أسراراً .. ولا يصح أن نقف عند
ظاهر الألفاظ .. وكذلك الأمر فى الجنة إذا كان الله يقول إن فيها فاكهة
وأعناباً ورماناً فيجب أن تؤمن أن فيها فاكهة وأعناباً ورماناً . ولكن مع فارق
هائل فى الرتبة والمذاق فلا تكاد تتشابه الفاكهة هنا والفاكهة هناك إلا
فى الأسماء .. ألا نقول عن الأنثى فى الإسكيمو أو فى الزنوج إنها امرأة
ونقول عن عذراء السويد الجميلة إنها امرأة وما أبعد الفارق فى الصورة ..
وهذه فروق الأرض فما بال فروق ما بين الأرض والسماء ، ثم ألا توصف
فاكهة الجنة بأنها لا مقطوعة ولا ممنوعة ونحن لا نعرف من الفاكهة إلا
ما كانت مقطوعة وممنوعة .. وتوصف خمر الجنة بأن شاربها لا يصدعون
عنها ولا يتزفون ونحن لا نعرف من الخمر إلا ما يصدع الرأس ويتزف العقل
وأين هى تلك الحديقة التى عرضها السموات والأرض إذا كان الأمر مجرد
حديقة .. كل هذه إشارات تدل على أن فى الأمر جانباً غيبياً .. ثم زيادة
على كل هذا النعيم الحسى هناك رضوان من الله أكبر .. والرضوان سر آخر
مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. يقول القرآن :

« لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » (سورة ق : ٢٥)

والمزيد هو رؤية وجه الله تبارك وتعالى ومكالمته .. وهى لذات لا يرقى إليها الخيال والجنة بهذا الاعتبار منازل ومراتب وفيها سير .. وأعلى درجة فى الجنة هى الوسيلة وهى مرتبة فى الجنة لا تصح إلا لواحد هو محمد عليه الصلاة والسلام . وبهذا ندعو فى فواتح صلواتنا .. اللهم آت محمداً الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدت وهو مقام الشفاعة العظمى الذى سوف يقفه يوم القيامة .

والقصور فى الجنة والمساكن فى عدن والغرفات المبنية لا يصح تصورها مبنية بالماكينات وبالطوب والحديد والأسمنت والمسلح .. وإنما كل شئ فى الجنة يبنى بالحروف .. كن .. بين الكاف والنون تقوم أكوان من العدم .. وهذا بعض ما نتعلم فى الجنة .. أسرار الحروف .. وسر القاف والصاد والنون وحم وطس وكهيعص .

وما ترويه الأحاديث فى الآخرة أن الله يجمع الناس ويظهر لهم فينكرونه يظهر لكل أمة بصورة لا تعرفها فتنكره فيعود فيظهر لكل أمة بالصورة التى عبده عليها فى الأرض فيسجد الكل .. فيعود فيظهر لهم فى ما لا يخطر على بالهم من الصور والاشكال مما يدهش ويبرر ليعلمهم انه من وراء كل الصور ومن وراء كل شئ وأنه ليس أى شئ وليس كمثله شئ وهذا بعض ما يلقى الله إلى عباده من العلم فى الآخرة .

وابن عربى يعتقد بعموم الرحمة بعد العذاب فى النار .

ولكن القرآن صريح فى أن بعض من يدخل النار هم من أهلها المحكوم عليهم بالتأيد فيها ولا خروج لهم منها ويقول بصريح اللفظ « خالدين فيها أبداً » (سورة النساء ١٦٩) .

« خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ »

(سورة الأعراف : ٨٨)

« وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (سورة البقرة : ١٦٧)

« يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا »

(سورة المائدة : ٣٧)

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . (أى يائسون) » (سورة الزخرف ٧٥) .

« وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ »

(سورة الزخرف : ٧٧)

« لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا »

(سورة فاطر : ٣٦)

ونظرية عموم الرحمة غير مفهومة بالنسبة لهؤلاء.. والقرآن صريح في حقهم والألفاظ صريحة وقاطعة ولا تسمح بتأويل .

ونحن نفهم تأييد النار بالنسبة لبعض النفوس .. إن بعض النفوس (وهى نفوس الجبابرة والشياطين) مجانسة للنار فهى نارية مثلها أو أشد .. ألا يقول القرآن عن النار إن « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » (سورة البقرة : ٢٤) .

وقودها .. ومعنى وقودها .. أنهم جمراتها التى تؤججها فهم أشد منها التهاباً ونارية .. وهذا مفتاح السر .. فبعض النفوس أشد نارية من النار بالطبيعة وهؤلاء هم الجبارون ومحركو الفتن وصانعو الحروب والعذاب للناس ولأنفسهم وهم الذين نراهم فى الدنيا لا يستريحون إلا إذا قلبوا الحياة حولهم جحياً عليهم وعلى الآخرين .. ومثل هؤلاء الناس مكانهم الطبيعى فى النار بحكم المجانسة ... والتأييد لهم مفهوم فهذه بيئتهم حيث يمارسون تعذيب

غيرهم وتعذيب أنفسهم بلا انقطاع فهذه حياتهم لا يصلحون إلا لها ولا تصلح إلا لهم ولو كان فيها عذابهم الأبدى .. ومثل هؤلاء الناس لا تبدو نارهم الداخلية النفسية وهم على الأرض فهي تتأجج محجوبة بثوبهم الطينى من اللحم والدم (ألا نطفئ النار فى الدنيا بالماء والتراب) ولكن إذا سقط هذا الثوب الترابى بالموت انكشف الأمر وكاشف كل منهم نفسه فإذا هى نار .. وفى النشأة الآخرة يكونون هم الجمرات التى تؤجج جهنم .. ويكون حظهم التأييد فيها حقاً وعدلاً ورحمة لهم ولغيرهم .

هذا فهمنا للأمر .. والله أعلم

أما عذاب القبر فهو حقيقة قرآنية بما ورد عن آل فرعون
« النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » (سورة غافر : ٤٦)

فهذا العرض قبل الساعة على النار غدوًا وعشيًا كل يوم هو عذاب القبر .

أما الآية القرآنية الأخرى التى تشير إلى هذا العذاب فهى الآيات التى تروى مشاهد الحشجة والاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم .

« فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .. فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ » (سورة الواقعة : ٩٥)

ومعنى هذا أن المحتضر يكشف له عن مصيره حينما يدخل فى الحشجة وتبلغ الروح الحلقوم فيتلقى بشارات الرُّوح والريحان إن كان من المقربين

ويتلقى السلام من الملائكة إن كان من أصحاب اليمين ويكشف له عن منزله في النار إن كان من المكذبين الضالين .. وهذا هو العرض الذي سوف يستمر يراوده في القبر إلى أن تقوم الساعة .

« فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبارَهُمْ »

(سورة محمد : ٢٥)

وهذا نوع آخر من اللقاء فور الموت إذ تتلقى الملائكة المجرمين بالضرب والإهانة .

وحياة الميت بعد الموت توصف بأنها برزخية (أى حياة شبحية بين الوجود والعدم كالنوم أو كالأحلام .. ألا نرى في الأحلام بدون عنين ونسمع بلا أذنين ونجرب في الأحلام وقد تكون أرجلنا مقطوعة في الحقيقة .. والله بهذا يضرب لنا مثالا بما سيكون بعد الموت وكيف ستكون حياتنا برزخية كالأحلام .. فيرى الميت بدون عنين ويسمع بلا أذنين ويتحرك بلا جسد .. وعذاب القبر وما رويناه من مشاهد النار سيكون بالنسبة للميت كمشاهد الكوايس في الأحلام وكذلك مرائى الجنة ستكون كالأحلام الرفافة العذبة الجميلة .

والحياة البرزخية هى أيضاً مراتب أعلاها مراتب الشهداء والصدّيقين والأنبياء والأبرار وهؤلاء يعيشون حياة حقيقية (أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) في العندية الإلهية ويروى كثيرون من أهل الكشف رؤية النبي عليه الصلاة والسلام بالجسد ومكالمته ويروى ابن عربى حضره له مع الأنبياء مجتمعين بحالهم وأجسادهم .

وهذه الدرجة العالية من الحياة البرزخية تؤهل لأصحابها التواجد في أى مكان والاستشراق على ما يجرى في الأرض والتمثل في الرؤى والإلهام بالخير للاتباع والمريدين .

أما الدرجة الدنيا من الحياة البرزخية فهي حياة المجرمين والعصاة والأشرار وهي حياة سجن وقيد في القبور تلازم فيها الأرواح مكان دفنها وتحوم حوله . وبعض الأنبياء ذكر أنهم رُفِعوا ولم يموتوا وأن لهم حياة في السموات مثل عيسى وإلياس وإدريس عليهم السلام وهؤلاء لهم عودة ونزول إلى الأرض ليتموا حياتهم المقدرة لهم ويموتوا مثل بقية البشر وسيكون نزولهم من علامات الساعة . . والسموات السبع غير معلوم حقيقتها ومكانها ونحن لا نعرف إلا سماء واحدة هي السماء الدنيا التي نراها بشمسها وقمرها أما السموات الست الباقية فهي غيب .

ومن وصف القرآن للسموات السبع بأنها « سبع سموات طباقاً » يمكن أن يفهم أنها متطابقة وأن كل ما يوجد في السماء الدنيا له نظائر وأشباه في السموات الأخرى مع فارق في الرتبة فإذا كان في الأرض فواكه وأنهار وحدائق وأعنان فالأرضون السبع فيها من ذلك من رتب أعلى تتفاضل حتى نجد أعلى الدرجات وأرقى حياة في السماء السابعة . . وقد يكون اختفاء هذه السموات والأرضين من المراسد بسبب أنها أكوان مادية ألطف وأعلىذبذبة . . وقد تكون موجودة فيما نرى من مجرات على بعد ملايين السنين الضوئية وفي هذه المجرات ملايين الشمس وملايين الكواكب ولا غرابة في أن تتكرر مرة بعد مرة ظروف تشبه ظروف الأرض في هذا العدد الهائل من المدن النجمية التي يقول الفلك إنها أكثر من مائة ألف مليون مدينة نجمية في كل مدينة مائة ألف مليون شمس بتتابعها وقوانين الاحتمال لا تنفي هذا التكرار . . والحقيقة في علم الله ...

والكون المادى يوصف عند أهل الكشف بأنه السموات السبع والأرضون السبع وسدرة المنتهى والكرسى والعرش المحيط ولا نعلم من هذه الأشياء إلا

أرضنا وسماؤنا وهو جهل ليس بمستغرب .. فالإنسان جاهل بجسمه فكيف يدعى أنه أحاط علماً بجسم العالم... ولقد جاس الإنسان بمبضعه في كل مكان من جسمه وتصور أنه أحاط بتفاصيله وبأسراره وبتشريحه وإذا بجماعة في الصين يفاجئون العالم بأسلوب جديد يخدرون به الجسم بزرع إبر رفيعة من الذهب في أماكن محسوبة فتستطيع أن تقطع رأس مريضك دون أن يشعر .. بمجرد زرع إبرة هنا أو هناك .. ويضرب الطب أخماساً في أسداس ويجتمع الجراحون وينفضون ويجتمع علماء التشريح وينفضون ولا يجدون للأمر تفسيراً إلا أن يكون في الجسم جهاز مجهول لم يكتشف بعد يهيمن على الحس والشعور غير ما نعلم من المخ والأعصاب .. أين هو ذلك الجهاز .. وما حكايته .. لا أحد يدرى .. الكل جاهل تماماً حتى الصينيون أنفسهم الذين أتوا بالاكتشاف .. وهذا حالنا مع جسمنا فكيف يُستغرب جهلنا بجسم العالم الكلى .

وأهل الكشف يقولون إن جسم الإنسان نموذج مصغر من الكون يجمع كل حقائقه ففيه العرش (القلب) والكرسى (العقل) والسدرة (الهيكل الجسدى المادى) ثم فيه الروح وهى نفخة الله التى نفخها فيه من روحه وهى تستوى على عرش الإنسان وتديره بمثل ما يستوى الله على عرش الكون ويدبره فالإنسان صورة من الكل فى الكل كما سبق أن ذكرنا ولهذا أقامه الله خليفة وجعل مقعده إلى جواره .. يليه فى الرتبة وجعل كل شئ يأتى بعده (هذا إذا أدرك مكانته وشرفه وتصرف على مقتضى هذا الشرف وهذه المكانة) يقول الإمام أبو العزائم فى تفسير الآية ..

« قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » (سورة الأنعام : ٩١)

إن من يعرف مكانته عند ربه وخلقته من النور الربانى وتأهيله ليكون فى

مقعد صدق إلى جوار ربه يدرك أن الانغماس في أحوال المادة الدنيوية هو لعب وهو عبث وغفلة وأن الدنيا ما خلقت وسخرت له إلا لامتحان وامتحان أشواقه ليُعرف هل يستحق أو لا يستحق هذه المكانة العلية ..

والله طول الوقت يخاطب عيون وآذان عباده بالمظاهر التي يتجلى بها في الدنيا يومئذ إليهم بالحقيقة لعلمهم يفهمون أو يدركون أو يفيقون من حالة اللعب التي هم سادرون فيها وهذا هو الشراب الطهور الذي يديره الله على خلقه .. فمن فهم الإشارة وأدرك العبارة وفك الرمز وقرأ الرسالة صرخ هاتفاً .. الله .. الله .. لا إله إلا الله .. وترك الكل في خوضهم يلعبون .. فقد شهد حقيقته في خفاء معاملة .

يدار شراب الطهر في حان قربه بعين التجلى لا بدِّن ولا كأس
لديها يُفك الرمز عن كثر غيبه أكون بلا كَوْن ولا يوم لا أمس
وجود شهودي في خفاء معالي « قل الله » برهاني فدع موجب اللبس
وهو يفسر الآية .. « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » (سورة الفجر
الآية : ١) بأن الفجر هو انفجار حقيقة الإنسان بإيجاده وتعيين رتبته في الغيب
الأول من قبل التصوير والتجسيد والنزول إلى عالم الأرحام ودنيا التعدد والأضداد
والأشكال .. والليالي العشر بعد الفجر في الغيب العلى رمز إلى ليالي
الإمداد وما يتطلبه الامداد من استجلاء الاستعدادات واللياقات ومدى
القبول في تلك العين الجديدة ... وهي ليال يتم فيها الدخول في ظلمة الرسم
(ظلمة الجسد) ... والشفع هو ظهور المثوية من الوتر (الواحد)

والعشر بعد الفجر في الغيب العلى رمز إلى استجلائه الامدادى
والإمام أبو العزائم يقول هذا الكلام عن علم كشفى لدنى وليس عن
اجتهاد برأى وللإمام أكثر من مائتين من الكتب والمخطوطات من المواجيه

الشعرية والإلهامات العرفانية وهو في نظري كثر لم يكتشف بعد وقطب ينافس الفحول قدماً وعلماً وسلوكاً .. ولا يصحح أن يُقرأ شعره على أنه شعر (كما هو الحال عند ابن الفارض) فشعره لا يخضع للمواصفات الفنية للشعر وإنما هو شفرة ورموز عرفانية عالية يفهم منها كل واحد على قدر حظه ونحن ما قدمنا من علم الرجل إلا نقطة من بحر ولعل خير ما نحتّم به كتابنا في الأسرار هو هذا الدعاء لمولانا الإمام أبي العزائم وهو أجمل ما قرأت في أدعية العارفين ومخاطباتهم لربهم .. ويبدأ بطلب المغفرة في خشوع وتوسل .

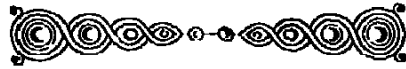
إلهي أسألك خاشعاً دامعاً تجلّ وجهي سود الذنوب وظلمة الخطايا ..
إلهي أنت أكبر من ذنوبي ولو شئت لغفرت ذنوب كل المذنبين وما نقص هذا من ملكك شيئاً .. إلهي لو شئت أن تواجه التراب بوجهك الجميل لواجهته ولا تُسأل عما تفعل . . ولو شئت أن تواجه الطين بوجهك الجميل لواجهته ولا تُسأل عما تفعل . . ولقد قبضت قبضه من ذلك الطين والحمأ المتين فجعلت منه صورة نفخت فيها من روحك القدسية . . وهذا فضلك الذي لا يحد . . فتفضل على يا رب بما أنت أهله يا ذا الجود والكرم فأنا التراب والطين وأنا عبدك المذنب . . وذنوبي وإن كثرت لن تضرك بشيء وطاعاتي وإن كثرت لن تنفعك بشيء فأنت الغني عن أعمالي فأسألك المغفرة .. وأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

إلهي فرّغ قلبي مما يشغلني عنك وأرح بدني مما يلفتني عنك واجذبني إليك بعوامل جمالك وعواطف حنانك حتى أتحقّق بحقيق العبودة راغباً راهباً ذا كرا لك على الدوام .

إلهي حصّني بحصون عنايتك واحفظني من العودة إلى المعصية بصرفي عن أسبابها واجعلني بأعينك يا رب العالمين يا أرحم الراحمين .

إلهى أشهدنى فى نفسى حقيقة طفوليتى ومنزلة مائيتى وسر طينيتى حتى
أشهد فى نفسى الفقر الكامل والذل الكامل وأرى فىك الغنى الكامل والقوة
الكاملة والقدرة اللانهائية فلا أخاف غيرك ولا أرجو غيرك .. إلهى وخلصنى من
بواعث بشريتى ومن دواعى آدميتى واحفظنى من شح مطاع وهوى متبع
وإعجاب برأى حتى أخلص العبودة لذاتك بلا غرض .. واحفظنى من
الاعتراض عليك فى أحكامك الشرعية ومن المعارضة لك فى أحكامك
القدرية حفظاً يصح به إسلامى .. وتولى قبض روحى يمينك عند انتقالى
من الدنيا فرحاً بلقائك وامنحنى يا إلهى بعد مفارقة هذه الدنيا إطلاقاً فى
فردوسك الأعلى حتى تكون روحى سابعة فى رياض جنتك وأنت أكرم
الأكرمين وصل وسلم على حبيبك وصفيك وسيلتنا إليك وبابنا إلى رضاك
محمد خاتم النبيين والمرسلين .

رحم الله أبا العزائم وأمدنا الله وإياكم من عين إمداده .





التهتك الصوفي

« تعليق »



جاءتني رسائل كثيرة حول سلسلة مقالات « السر الأعظم » البعض يقول :
إنه لم يفهم شيئاً .. والبعض يحذر من شطحات الصوفيين ، والبعض يقول :
إنهم أهل شطط وضلال وانحراف ، وينصح برفض التراث الصوفي كله ..
والبعض يكتب بتقديس كامل لهؤلاء الناس ويتناول أفعالهم وأقوالهم على أنهم
معصومون لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم ، وينصح بالتسليم
الكامل لكل قول وكل فعل يصدر عنهم ويستنكر أني راجعت بعض أقوالهم
وأنكرت عليهم بعض شطحاتهم ، فهم في نظره أنبياء أو كالأنبياء وكتبهم
قرآن وتنزيل .

ولهذا رأيت لزماً عليّ أن أكتب هذه الخاتمة .

والحقيقة أن التراث الصوفي بحر عميق فيه اللآلئ والأصداف ، ولكن فيه
أيضاً التماسيح والحيتان .. فيه جزائر المرجان وفيه المتاهات المهلكة التي لا يعود
منها الملاح .

والقراءة في التصوف أشبه بالملاحة في بحار الظلمات بقارب شرعى
وما أكثر ما تنكسر الدفة ويتحطم المجذاف ويفقد السالك اتجاهه .
والنور الوحيد الهادى للسالك في هذا البحر هو نور الكتاب والسنة ..
ويدون الشريعة لا يمكن أن يصل السالك إلى بر أمان .

الشرعة دفعة الملاح في هذا البحر .. وهى دليله على ما يأخذ وما يدع ..
فما وافق الشرعة من لغة القوم وعلومهم يأخذه ، وما خالف الشرعة يتركه
غير نادم .

والتسليم الأعمى بكل ما هو مسطور في هذا التراث يؤدي بصاحبه أحياناً
إلى الكفر والضلال الصريح ، فالقوم أهل مواجيد وجذبات وأحوال وبعض
ما يقولونه ينطقون به في حالات الوجد وذهول العقل كما يقول العاشق لمعشوقته
في لحظة غرام مشبوب .. أنا وأنت روح واحدة وجسم واحد .. أنا أنت وأنت
أنا ، وهو كلام في حقيقته كاذب .. فلم يحدث اتحاد بينه وبين حبيبته ..
ولكنه من فرط حبه توهم هذا الاتحاد في حالة من حالات التهتك والتوقد
العاطفى .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا .
ولا يصح أن نقرأ هذا الكلام على أنه ترجمة لواقع أو على أنه حقيقة
عرفانية .. بل على أنه تهتك وغرام وهوى مشبوب ووجدان مذهول .
وبهذا المعنى يجب أن نقرأ أبيات الصوفى العاشق ابن الفارض التى يخاطب
فيها الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً :

إلى رسولاً كنت منى مرسلأ وذائق بآياتى على استدللت
وكلهم عن سبق معنأى دائر بدائرتى أو وارد من شريعتى
وإني وإن كنت ابن آدم صورة قلأ فيه معنى شاهد بأبوقى
فهو يقول فيها أنا الله ، أنا الذى أرسلتك بشريعتى ، أنا الدائرة التى يخرج
منها كل شئ ويعود إليها كل شئ . أنا ابن آدم فى الظاهر وأبو آدم وخالقه
فى الحقيقة .

وهو كفر صريح .. أو قل هو تهتك المحب الذى تصور أنه عين المحبوب ..

فهو يقول لله ، أنا أنت ورسولك أنا الذى أرسلته وآدم أنا الذى خلقته .

كما قال المتهتك الآخر :

العين واحدة والحكم مختلف وذاك سر لأهل العلم ينكشف
أى أن الخالق هو عين المخلوق .. ونحن أمام حكمين لعين واحدة هى
رب من وجه وعبد من وجه .. وهى وحدة الوجود الهندية الوثنية التى تعنى التعطيل
الكامل لفكرة الربوبية .

ونقرأ هذا التهتك الصوفى نفسه فى قصيدة لأبى حامد الغزالى فى كتاب
معارج القدس .

ولعل هذه القصيدة مدسوسة على الرجل .. ولعلمهم نحلوها له ظلماً
وتحريفاً .. الله أعلم .
يقول فيها لربه :

| | |
|--|-----------------------------|
| وهل أنا إلا أنت ذاتاً ووحدة | وهل أنت إلا نفس عين هويتى |
| ملأت جهاتى الست منك فأنت لى | محيط وأيضاً أنت مركز نقطتى |
| فصرت إذا وجهت وجهى مصلياً | فرائض أوقأتى فنفسى كعبتى |
| وحولى طوافى واجب وخلاله | استلامى لركنى فى مناسك حجتى |
| وذكرى وتسبيحى وحمدى وقربى | لنفسى وتقديسى وصفو سريرتى |
| ولو هم منى خاطر بالتفاته | لما كان لى إلا إلى تلفتى |
| وإن صحت نسبة هذه الأشعار للإمام الغزالى فلا يصح أن نقرأها إلا على | |
| أنها تهتك صوفى وخلع للعدار وجنون تام تصور فيه المجذوب من فرط قربه لربه | |
| أنه هو والله واحد . | |

وهم يقولون هى خمر الحب التى أذهلت عقل شاربها وأفنته عن نفسه
فأصبح الحق هو الذى ينطق على لسانه .. لا هو ..

إنها مرة أخرى ذلك الهوى المشبوب الذى يجعل المجنون يقول لِلْيَلَاةُ ..
أنا أنت وأنت أنا .

والضلال كل الضلال أن نقرأ هذا الكلام على أنه أدب عرفانى أو تعبير
عن حقيقة ، فإنه يكون منتهى سوء الفهم الذى يقلب الإيمان كفراً والهدى
ضلالاً .. وإنما هو كلام يقرأ على أنه تهتك ولوثة وحالة من البسط فقد فيها
المحب عقله وفقد أدبه .

وهو كلام لا يؤخذ أبداً على ظاهره .

وكما أن الصوفيين أهل جذبة فهم أيضاً أهل مغالاة ، فقد يتزهّد الواحد
منهم لدرجة يحرم على نفسه الملح و يعتبره ترفاً ، أو يحرم على نفسه المخالطة
الجنسية حرامها وحلالها فلا يتزوج . أو يقطع الصحراء بدون زاد إمعاناً فى التوكل
وتفويض الأمر لله وإسقاطاً للتدبير .. ولا يصح أن نفهم هذه الأمور على أنها
إسلام ، فهي ليست من الإسلام فى شيء ، وإنما هي من المغالاة والتزيد
والإفراط الذى يخرج بالإسلام عن جوهره كدين توسط واعتدال .. وسنة رسولنا
عليه الصلاة والسلام صريحة فى حديثه :

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً
أبقى » .

فهو ينهى تماماً عن أمثال هذا التزيد والإفراط ويأمرنا بالاعتدال وأخذ
كل شيء برفق .

ويقول : أنا أصوم وأفطر وآكل اللحم وأخالط زوجاتي فمن رغب عن سنتي
فليس مني .

وديننا ليس ضد المال وإنما هو ضد الذل للمال وضد كثر المال وضد البخل
بالمال على الآخرين .. وهو لا يفضل لنا الفقر والحاجة ، بل يفضل لنا الغنى

والإنفاق والكرم ، ورسولنا عليه الصلاة والسلام يقول : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » ، ويقول الإمام على : « لو كان الفقر رجلاً لقتلته » ، فهذه الأحوال من زهاد الصوفية وفقرائهم لا يجب أن تتخذ كقدوة وأسوة ونموذج يحتذى ، وإنما على العكس تقرأ كنماذج من المغالاة والإفراط والتهتك في محبة الله انتهت بصاحبها إلى لوثة وهجر للدنيا ورفض للطعام وانقطاع للتبتل .. وبالمثل لبس الخرقة والعباءة المرقعة ، فرسولنا عليه الصلاة والسلام لم يؤثر عنه لبس الخرقة ، وإنما كان أنيقاً نظيفاً حسن الملبس في بساطة واعتدال .. وهو أسوتنا وقدوتنا .. وإنما الخرقة هي الأخرى لون من ألوان التهتك في الحب . وأنا لست من الرأى القائل برفض التراث الصوفى كله بسبب هذه المغالاة والإفراط والشطح والجذب .

كما أنى لست من الرأى القائل بالتسليم الكامل والتقديس الكامل وقراءة هذا التراث على أنه حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتلاوة أقوال هؤلاء الناس على أنها قرآن والنظر إليهم على أنهم معصومون .

وكلا الرأيين مغالاة وشطط في الرفض وفي القبول معاً .. تماماً مثل رفض الطب بحجة وجود مشعوذين ودجالين بين الأطباء .. أو بسبب وقوع بعض الأطباء في أخطاء في التشخيص .. أو مثل رفض علم الفلك لأن هناك فلکیاً أخطأ في القياس .. وإلا كان معنى هذا أن نرفض العلم كله ونعود بحضارتنا ألف سنة إلى الوراء .

ورفض التراث الصوفى يسلب الإسلام من أجمل وأروع ما كتب في رياضة النفس وفي تزكية الأخلاق ومجاهدة الشهوات .. كما يحرم الفكر الإسلامى من أعمق ما قيل في التوحيد وفي المعارف الإلهية .

وما أجمل ما يقوله الصوفى الموحد لربه في خشوع وحب :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً وحياتكم ما فيه إلا أتم
وشرح لنا ذلك الصوفي قوله بأن كل ما يراه في الدنيا هو تجليات الحضرة
الأسمائية والحضرة الصفاتية لمولاه ، فالسم تجل لاسمه « الضار » والترياق تجل
لاسمه « النافع » والخصوبة تجل لاسمه « الرزاق » والأمومة تجل لاسمه « الرحيم »
والربيع تجل لاسمه « المحيي » والخريف تجل لاسمه « المميت » والزلازل تجل لاسمه
« الجبار » .. وكل ما يبدو من مخلوقات هي كلماته .. إلى آخر ما قدمنا في
المقالات من نظرية ابن عربي من أن العالم هو مظهر لعموم التجلي وحجة على
العقل بظهور الله بأفعاله وحكمته ومشيبته وصفاته وأسمائه في كل شيء .
وما أبعد هذه النظرة عن وحدة الوجود الوثنية الهندية . . فالبوذي يقول . .
العالم هو الله .

ونحن في الإسلام نقول إن العالم هو صنعة الله وتجليات لقدرته . .
ونحن نقرأ صفاته في صنعته ونتجلى أسمائه من كمالات صنعته ، أما ذاته
سبحانه فهي في غيب الغيب لا يجوز عليها الحلول أو التجسد أو الاتحاد
أو الاتصال أو الانفصال وإنما هي في العلو المطلق . . وإنما كل ما نرى
حولنا من مظاهر فهي تنزلات أسمائية وكلمات وأفعال إلهية ، ألم يقل سبحانه
وتعالى لمريم عن المسيح :

« إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ »
(سورة آل عمران : ٤٥)

وعن يحيى :
« أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ »
(سورة آل عمران : ٣٩)
وكلماته سبحانه لا نهاية لها ولا تعد ولا تحصى وكل المخلوقات كلماته :

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي . لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ
كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » . (سورة الكهف : ١٠٩)

وفرق كبير بين أن نقول إن العالم هو الله وبين أن نقول إن العالم
كلمات الله . . فالأولى تعطيل وكفر مهذب وعدم اعتراف بأى شىء سوى
بالمادة التى نسميها الله . (وهذا سر اللقاء السعيد بين الماركسية والبوذية
فى الصين) والثانية هى النص الصريح بوجود ذات مطلقة فى الغيب صدر
عنها الكون والوجود . . كما تصدر الكلمات عن المتكلم . . والتفرقة هنا
واضحة وقاطعة بين مظاهر الوجود المتغيرة (التى هى الكلمات) وبين
الذات الأزلية الأبدية الباقية الخفية فى غيب الغيب .

وما أجمل وأعمق الموحد الذى يقول :

« ما وحد الأحد أحد »

فالله سبحانه هو الذى وحد ذاته بكلماته وأفعاله وآياته الدالة عليه . .
وآياته هى التى هدتنا إلى توحيده . . فما وحد الأحد أحد فى الحقيقة
سوى الأحد .

وما أجمل الموحد الآخر الذى يقول :

| | |
|--|-------------------------|
| صاحب التوحيد أعمى أخرسُ | لا أنا قال ولا أنت أنا |
| يا عبيد النفس ما هذا العمى | لم تزالوا تعبدون الوثنا |
| سقتم الظاهر من أحوالكم | ما لنا منكم سوى ما بطنا |
| فأخرجوا بالموت عن أنفسكم | تبصروا الحق بكم مقسرتنا |
| وانظروا ما لاح فى غيركم | تجدوه فيكم قد ضُمنَّا |
| فصاحب التوحيد أعمى أخرس لا يرى نفسه . . لا يرى إلا المشيئة | |
| وآيات الحكمة الإلهية . | |

ولا يرى الذات الإلهية إلا الله . . وإذا كان لنا مدخل إلى رؤية هذه الذات
في الآخرة فلا طاقة لنا بهذه الرؤية إلا بالله وبفضله .

إذا رام عاشقها نظرة
ولم يستطع إذ علا وصفها
أعارته طرفاً رآها به
فكان البصير لها طرفها

سبحانه لما تتره عن النهاية انتفى عنه الضد والند عند الغاية .
لا تنتهى فيه النهى لنهاية من شاء يطنب فيه أو لا يطنب
هو الواحد بذاته المتكرر بصفاته وأسمائه وكلماته المحتجب من فرط
ظهوره كسواد العين لا يرى من فرط قربه .

يقول الصوفي عن تلك الذات الإلهية في غيب الغيب .
وما احتجبت إلا برفع حجابها
ومن عجب أن الظهور تستر

فسبحان من اختفى بما به ظهر وغاب بما به حضر .
ويقول الصوفي المتأمل في أحوال الكثرة في عالم الدنيا .
« الكثرة في عالم الفنا هي التي أوجبت لبعضها البعض النطق بأنا » .
ويقول إن لفظة أنا هي لسان فردانية الله في الأفراد الذي تحير منه
المتعلم والعالم .

ويقول إن الذات الإلهية متجردة في ذاتها من الاسم والوصف والكيف
والكم والأين . . وإنما تعددت الأوصاف بتعدد القوابل كما يبدو الماء الذي
لا لون له متعدد الألوان في الأكواب الملونة من الزجاج « لون الماء لون إنائه »
. . فيعكس كل إناء ما يناسب استعداده وطبيعته .

كما تخرج الثمار المتعددة الطعوم والروائح من الماء الواحد الذى لا لون له .

« يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ عَلَى بَعْضِهَا فِي الْأَكْلِ » .

(سورة الرعد : ٤)

كل بذرة تأخذ وتعطى من النبع بقدر استعدادها والكل صادر من ثراء الذات الإلهية اللانهائى .

يقول الصوفى ابن عطا الله السكندرى :

« إلهى ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وما الذى فَقَدَ من وَجَدَكَ . . لقد خاب من رضى دونك بدلاً ، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً . . إلهى كيف تُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

بهذه اللمسات النورانية تمضى بنا رحلة التصوف لتضيف إلى المعرفة الإلهية وإلى التوحيد عمقاً وشاعرية وحرارة .

وبدون التراث الصوفى يفقد الدين بعداً وجدانياً وعمقاً عرفانياً لا غنى عنه . ولكن أيضاً وبنفس القدر من الأهمية لا يصح أخذ التراث الصوفى على أنه قرآن منزل ، ولا يصح التسليم بكل ما فيه على علالة ولا يصح النظر إلى الصوفيين على أنهم أنبياء معصومون لا يأتهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم . . بل هم قوم ممن خلق الله يجوز عليهم الخطأ والصواب .

والقراءة السليمة للتراث الصوفى هى القراءة الانتقائية الناقدة التى تزن كل حرف بميزان الشريعة وتعرضه على ضوء السنة والكتاب والعقيدة السليمة التى علمها لنا كتابنا ونبينا عليه الصلاة والسلام لا نجاوزها قيد شعرة ولو دعانا إلى هذا التجاوز إمام الصوفية فى زماننا .

ولهذه المحاذير سوف تظل المعارف البصوفية زاداً للقلة والخاصة من القراء
وعلماء مضموناً به على غير أهله ، وليس علماً مشاعاً للعوام والكثرة ، لأنه
علم يحتاج إلى بصيرة لفهمه واستشفافه ولأنه معرفة تحتاج إلى ذوق ومعاناة
لإدراكها .

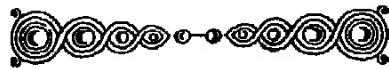
ولن يقول إنه لا يفهم شيئاً نقول :
لو أحبيت كما أحينا لفهمت كما فهمنا



فهرس

الصفحة

| | | | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|---|-----------------------------|---|
| ٧ | . | . | . | . | . | . | السر الأعظم | * |
| ١٥ | . | . | . | . | . | . | الهُو | * |
| ٣٥ | . | . | . | . | . | . | الأنسا | * |
| ٥٩ | . | . | . | . | . | . | المشهد التوحيدى وكشف الحجاب | * |
| ٨١ | . | . | . | . | . | . | الحب الإلهى | * |
| ٩٣ | . | . | . | . | . | . | المصير | * |
| ١٠٧ | . | . | . | . | . | . | التهتك الصوتى | * |



| | |
|--------------------|----------------|
| ١٩٩٩/٥٢٥٠ | رقم الإيداع |
| ISBN 977-02-5799-0 | الترقيم الدولي |

١/٩٩/٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه المجموعة

نحرص دار المعارف دائماً على تقديم الأعمال
الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى
محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم. . . فأثرى
ساحة الفكر والعلم. . . وطَرَقَ أبواباً جديدة لم تفتح من
قبل. . . فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية
وأدب الرحلات. . . إلى جانب تلك المؤلفات التي تحفل
بالنظرات المعاصرة للفكر الديني والمقارنة بالنظرات
العلمية الحديثة. . . والتي لاتزال تنير مزيداً من الجدل
المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى
الفراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض
أعماله إلى اللغات الأجنبية ساهمة بقدرته على العطاء
المتنوع.



دارالمعارف

٢٥٧٢٣/٠١



To: www.al-mostafa.com